«الثَّقَافَةُ العِلْمِيَّةُ»: وَقُودُ «الثَّقَافَةِ التَّنْمَوِيَّةِ»

٦-١) مَدْخَل:

لقد خَلَصْنَا - فيما سَبَقَ - إلى أنّ «الثَّقافة» كَائِنٌ حَيٌّ يَتَطَوَّرُ ويَتَغَيَّرُ؛ فهي في حالةٍ ديناميكيّةٍ مُسْتمرّةٍ ممّا يَجْعَلُ الوَضْعَ عسيراً، ومُتَعَدِّدَ العناصِر، عند التّأمُّل والتّحْليل والتّشْخيص في ضَوْءِ هُمُوم «الثَّقافة» وضُغُوطِهَا المُتنامية. ولذا لا يُمْكِنُ اخْتِزَالُ «الثَّقافة» في فَعّاليّاتٍ فِكْريّةٍ أو فنيّةٍ أو أدبيّةٍ لا تكادُ تَتَغَيَّرُ مَعَالِمُهَا من جيلٍ إلى آخَر؛ فما تُحْدِثُهُ المُتَغيِّراتُ المُتسارِعةُ والتّأثيراتُ القويّةُ عبْر وَسَائِلِ الاتّصالاتِ الفائِقَةِ والتّرابُطِ العُضْويّ مع تفاعُلاتِ «الثَّوْرَةِ العَوْلَميّة» تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّة» تحدِّياتٍ جَمّةٍ، وتَفْتَحُ آفاقاً جديدةً لا تَسْتطيعُ هذه المُجْتمعات أنْ تُهْمِلَهَا، ولا يجوزُ لـ«الثَّقافة» أنْ تُغْفِلَهَا؛ ومن أبْرز هذه التحدّيات وأكْثرها عُنْفواناً وتَأْثيراً هو «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بكُلِّ قفزاتِه المَعْرفيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والفِكْريّة.

لقد رأينا في الفَصْل الثّاني كيف كانتْ أُطْرُوحَةُ «إشْكَاليّة الثَّقافَتَيْن»، كما بَلْوَرَهَا تشارلز سنو[٣٢]، مُنْطَلَقاً لتَحَوُّلٍ جِذْريٍّ في «مَفْهُوم الثَّقافة» وتداعياتِه وتفاعُلاتِه في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ولم تَزِدْ تطوُّراتُ النِّصْفِ الثّاني من القَرْنِ العشرين تلك الحقيقة إلاّ وضوحاً وترْسيخاً؛ فقد جَعَلَتْ «ثَوْرَةُ المَعْلُومات» من «الثَّقافة العِلْميّة» مِحْوراً رئيساً للتّفاعُلاتِ الفِكْريّة والتّنْمَويّة والمُجْتمعيّة على طريقِ «العَوْلَمَة» وثقافتِها. وأمّا «الأَلْفيّةُ الثّالثةُ» فإنّها تَجْعَلُ من التّحدّي التّنْمَويّ والتّلاقُحِ العِلْميّ والسِّبَاقِ التّقنيّ حقائِق وبدهيّاتٍ لا مناص من التّعامُلِ معها وفْق لُغَتِهَا ومُتَطلَّباتِهَا وشُرُوطِهَا؛ وهنا تَنْتَصِبُ مقولة رينيه

ماهيو (Rene Maheu) - المدير العامّ الأسْبق لليونسكو -: (إنّ تَنْمية أيِّ أُمّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقَّقَ إذا لم تَنْتَقِلْ العلوم والتّقْنيّة من كَونها سِحْراً مُسْتَوْرَداً إلى أنْ تُصْبِحَ عَادَةً لدى مُواطِنيها)[٤٤]، وأمّا «التَّقْريرُ العَالَميّ لمُنَظَّمَة اليونسكو لعام ٢٠٠٥م»[٨٣] فيُقَرِّرُ أنّ: (رَدْم الشَّرْخِ الرّقْميّ وإقامة نِظَامٍ للابْتكار مُلائِمٍ للبلدان النّامية يجب أنْ يُضَافَ إليه اسْتيعابٌ حقيقيٌّ للعِلْمِ ضمْن «ثقافة التّنْمية»).

وأمّا «الثَّقافةُ العربيّةُ» فقد أَهْمَلَتْ تداعياتِ تلك الحقائِق الصّارِخة ومُقْتضياتِها، وراحتْ تُكَرِّرُ «سُؤال النّهْضَة» - مَرَّةً تِلْوَ الأُخْرَى - دَاخِلَ دَوائِر مُنْغَلِقَةٍ تَجْتَرُّ مساراتِها وتُعِيدُ أخطاءَها، ويَطْرَحُ زكي نجيب محمود ذلك السُّؤالَ القديمَ - المُتَجَدِّدَ في سَعيٍ لبَلْوَرَةِ الإجابة فيقول: (سُؤالُنَا «لماذا تَقَدَّمَتْ أوروبا بعْد تَخَلُّفٍ وتَخَلَّفْنَا نحن بعْد تَقَدُّم؟». إنّنا نَسْأَلُ سُؤالَنا هذا، وكأنّ الجواب خَافٍ عن الأبْصَار، يَحْتَاجُ من البَاحِثين دَرْساً وتَنْقيباً، مع أنّ الجواب يَخْرِقُ العَيْن، وهو: لقد حاولتْ أوروبا منْذ نَهْضتِها في القَرْنِ السّادس عشر أنْ تَقِفَ الوَقْفَةَ العَقْليّة العِلْميّة التي تَبْتَكِرُ بها في كُلِّ يومٍ حقيقةً جديدةً عن دُنْيانا هذه التي نعيشُ على أرْضِهَا ونَتَنَفَّسُ هواءها، بينما اتَّجَهْنَا خلال الفترة نفْسها نحو الماضي، نُبْدِي في نُصُوصِهِ المَكْتُوبَةِ ونُعِيد)[٢٠]. وأمّا عبد الله النّديم فيتأمَّلُ إمْكانات «النَّهْضَة» في القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ مُقَارِناً بين وَاقِعٍ يعيشُه، ومُسْتَقْبَلٍ يَرْنُو إليه، فيقول: (إنّ سُكَّانَ الشّرْقِ عبيدٌ: إنّهم يَزْرَعُون ويَحْصِدُون ويُبْدِعُون لكي يُغَذُّوا التّجارة الأوروبيّة، ويزيدوا ثَرَاءَ أوروبّا... كما لو كانوا قد خُلِقُوا لخِدْمَتِهَا. ما دام الشّعْبُ خَاضِعاً للجَهْلِ ويعوزه الاسْتِعْدَاد للنّضَال، فإنّه لن يتمكَّنَ من التَّوَصُّلِ إلى أيِّ شيء. إنَّ الانْتفاضة لن تَجْلِبَ النّجاح، إذا لم يَحُزْ الشَّعْبُ على المعارِف، وإذا ما انْصَرَفَ النّاسُ عن المَشْرُوعات الصّناعيّة، وإذا لم يَعْرِفُوا كيف يَسْتَعْمِلُون التّقْنية)[٦].

وهكذا تَتَكَرَّرُ الأسْئلة إيّاها عبْر الحِقَبِ المُتتالية، بينما تَبْقَى طبيعةُ اهْتماماتِ «الثَّقافة العربيّة» ومُحَدِّدَاتِهَا ثَابِتَةً عبْر القُرُونِ دون تَغْييرٍ جوهريٍّ. وهكذا تَتَجَلَّى - عبْر الطُّرُوحَاتِ المُخْتلفة - ماهيَّةُ «العُنْصُرِ الغَائِبِ» في تَرْكيبتِها، وهو العُنْصُرُ الذي صَنَعَ فُرُوقاً جَمّةً عبْر القُرُون الثّلاثة الأخيرة في حياة البشريّة، ووَضَعَ الحَواجِزَ بين

«الـدُّول المُتَقَدِّمَـة» المُزْدَهِـرَةِ التي تُمْسِـكُ بصِناعة القـرار على مُسْتـوىً كَوْنيٍّ، وبين «الـدُّول المُتَخَلِّفَـة» التي تُعَانِي من مُشْكلاتِ الوَهَنِ الفِكْـريّ، والفَقْرِ المَعْرفيّ، والإحْبَاطِ المُجْتمعـيّ، والتَّخَبُّـطِ التّنْمَويّ. ذلك «العُنْصُرُ الغَائِـبُ» هو ما يصوغُ زكي نجيب محمود طبيعتَه وتَأْثيرَه على النّحْو التّالي: (لنَسْتَخْرِجْ العُنْصُرَ الذي غاب عنّدنا فكان الانْحِدَارُ... ووُجِـدَ عنْدهم فكان الصُّعُودُ، وأَحْسَبُ أنّ الحقيقة عندئـذٍ ستَصْرُخُ في وجوهنا صُراخاً يَسْمَعُـهُ حتّـى الأصَمّ، بأنّهم هناك قد أخـذوا يَقْرؤون كِتَابَ الطَّبيعـة المَفْتُوح، ويَقْرؤونه علـى ضَـوْءِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» المُؤَدِّي حَتْماً إلى نتائِج عمليّةٍ فـي حياة النّاس، بينما أَخَذْنَا نحـن نَقْرأُ صَحَائِـفَ الأقْدَمين لنَحْفَظَهَا حِفْظاً، ونَشْرَحَهَا ونَشْـرَحَ شُرُوحَهَا ونَكْتُبَ عنْها الهَوامِشَ، ثـمّ نَشْرَحُ هذه الهَوامِشَ فـي هَوامِش، إلى آخِر هذا الجُهْـدِ الشّاقِّ الذي يَبْدَأُ بالـورق ويَنْتَهِـي بالورق)[٢٠]. وأمّا حسن صعـب، فقد أَطْلَقَ الصَّرْخَـةَ منذ السّتينات في القَـرْن الماضي، مُـدْرِكاً مَكْمَنَ الضَّعْفِ في «العَقْـلِ العربيّ»، ودَاعِياً إلـى مَنْبَعِ القُوّةِ في وَاقِـعِ الحياة المُعَاصِرَة، فيقول: (نَدْعُو «العَقْلَ العربيّ» للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمات» إلى «صِنَاعَـةِ الأشْياء»، ومن اجْتِرَارِ المَنْظُومَاتِ والأراجيـزِ إلى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْمِ الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً)[٨٤].

أمّـا محمد عابد الجابريّ[١] فإنّه يَتَوَقَّـفُ أمام «المَعْرِفَة العِلْميّة» ليُصَنِّفَهَا كمُرَافِقٍ أساسٍ لشُرُوطِ تجاوز «أَزْمَةِ العَقْلِ العربيّ والثَّقافة العربيّة»، فبينما يُحَدِّدُ الجابريّ هذه الشُّـرُوطَ بالتّغلُّبِ على «الأُمِّيّـة» التي تَعْنِي لديه إجَادَةَ اللّغات، والعمـل على إعادة قِرَاءَةِ «التُّرَاثِ» قِرَاءَةً نَقْديّة، والانْكبَابَ المُتواصِلَ على تَحْليلِ وَاقِعِنَا، فإنّه يُضِيفُ قائلاً: (على أنّ العمـل في هذه الوَاجِهات الثّـلاث سيكونُ غير مُنْتِجٍ، ما لم يكنْ مُرْفَقـاً بحَمْلَةٍ وَاسِعَةٍ من أجْل نَشْرِ «المَعْرِفَة العلْميّة» على أوسع نِطَاق. ولسنا نَقْصِدُ هنا «نتائِجَ العِلْم»، كُشُوفَهُ ومُنْجَزَاتِـه، بَـلْ نَقْصِدُ بصُورةٍ خاصّـةٍ «فَلْسفة العِلْم»، أَعْنِي المفاهيـم وطرائِق التّفْكير المُؤَسِّسَـة لكُلِّ «مَعْرِفَةٍ عِلْميّـة». إنّنا نَسْتَهْلِكُ «العِلْمَ» كمُنْجـزاتٍ ماديّةٍ أو نظريّة، ولكنّنا لا نُنْتِجُـهُ، والسَّبَبُ واضِـحٌ، إنّنا لم نَتَمَكَّنْ بعْد من إعْدَادِ التُّرْبَةِ الصّالِحَةِ لغَرْسِ شجرته، وليسـت هذه التُّرْبَةُ إلاّ الفَلْسفـة، فَلْسفة العِلْمِ بكَيفيّةٍ خاصّة). بطبيعة الحال لا نَتّفِقُ هنا

مع الجابريّ في أنّ تلك «المَعْرِفَة العِلميّة» هي فقط «شَرْطٌ مُرَافِقٌ»، أو أنّ التُّرْبَةَ اللّازِمَةَ هي فقط «فَلْسَفَةُ العِلْم»؛ فالقضيّةُ أَعْمق من ذلك وأَشْمل، ولكن على الأقلّ هذه إرْهَاصَةٌ مُهِمّةٌ من ضمْن تلك الإرْهَاصَاتِ التي تَضِجّ بها «أدبيَّاتُ الثَّقافة العربيّة» المُعَاصِرَةُ بصفتها أعْراضاً لأزْمَةٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، ولا شَكّ أنّنا في أمسِّ الحاجة إلى الغَوْصِ في أعْمَاقِ هذه «الأَعْرَاضِ» لتَشْخيصِ «المَرَضِ» ووَصْفِ «العِلاج».

بطبيعة الحال، لا يَكْفي إيماءٌ هنا وتَنْويهٌ هناك للخُرُوجِ من «مَأْزِق التّنْمية» الذي وَقَعَتْ فيه «الثَّقافةُ العربيّةُ»؛ فالأَمْرُ في أمسِّ الحاجة إلى تَفْصيلٍ وتَأْصيلٍ من ناحيةٍ، وإلى «خريطة طريقٍ» من ناحيةٍ أُخْرى، ويَبْقَى السُّؤالان الأكْثر إشْكَاليّةً في وَاقِعِنَا العربيّ، وهما: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَدَّثَ عن «مُسْتقبَلِ الثَّقافة» بمَعْزِلٍ عن عَصْرِهَا وطبيعةِ القُوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَةِ لمساراته؟، وألا يَجُرُّنَا هذا الهَمّ إلى الحديث عن «ثقافة العلوم والتّقْنية»، وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ - كالعادة - في كُلّ أُطْرُوحاتنا، وإنْ كُنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشِيرَ إليها على اسْتِحْياءٍ ودون تَمَعُّن؟).

وفي سَعينا لتَأْصيلِ ذلك «العُنْصُرِ الحيويّ» المَفْقُودِ في «الثَّقافة العربيّة» قد نجدُ إجابةً شَافِيةً عن السُّؤال الذي أَرَّقَ الكثيرين من المُفكّرين والمُثقَّفين والعُلماء، وهو السُّؤالُ الذي صَاغَهُ أنطونيوس كرم على النّحو التّالي: (لماذا عَجِزَتْ الحضاراتُ الشّرقيّةُ العظيمةُ من تَحْويلِ إنْجازاتِها العِلْميّة والتّكنولوجيّة الضّخْمَة إلى ثَوْرةٍ صِناعيّةٍ دَائِمَةٍ قَادِرَةٍ على خَلْقِ الشُّرُوطِ الضّروريّةِ لاسْتِمْرَارِ تَطَوُّرٍ حضاريٍّ وفِكْريٍّ وسِياسيٍّ مُتواصِل؟)[٨٥]. وفي بَحْثنا لتَأْصيلِ هذا «العُنْصُرِ الحيويّ» المَفْقُودِ في «بَوْتَقَةِ النّهْضَة» حريٌّ بنا أنْ نَقِفَ - أيضاً - أمام السُّؤال الآخَر الذي يَطْرَحُهُ راشد المبارك[٢٥]: (هل يُمْكِنُ أنْ يكون العَالَمُ الإسْلاميّ - دُولاً وشُعُوباً - على ما هو عليه في الوقْت الحَاضِرِ من تَخَلُّفٍ وجدبٍ؛ في الجَوانِب الاقْتصاديّة والعِلْميّة والتّقنيّة والعَسْكريّة، لو أنّ هذه البِدايات التي ظهر أوّلها منْذ أكْثر من اثني عشر قَرْناً على يد جابر بن حيّان والكِنْديّ وابن الهيثم وابن سينا وابن النّفيس وأمْثالهم وَافَتْ تُرْبَةً صَالِحَةً من إقْبَالِ المُجْتمع واهْتِمَامِ الدّولة وإدْرَاكِ ما تَنْطَوِي عليه هذه البِدايات من أبْعاد؟). ولا شَكّ في أنّ هذا السُّؤال، في

مضامينـه وتداعياتـه واستشْكالاته، سُؤالٌ كبيرٌ بحَجْمِ مُعاناة الأُمّـة في بَحْثِهَا القديم – المُتَجَـدِّد عن سُبُل «النَّهْضَة»، وهـو يُشِيرُ بقوّةٍ إلى ضرورة توفيـر «الوَسَطِ» الذي يَصِفُهُ راشد المبارك بأنّه: (وَسَطٌ من طبيعته مُرُونَةُ الحركة والامْتِدَاد).

٦-٢) تَأثيرات العلوم والتّقْنية على المُجْتمعات:

مـن أبْرز القضايـا المَطْرُوحة – بشَكْلٍ كبيرٍ – في «الفِكْرِ المُعاصِرِ» هي السُّؤالُ عن المِفْتَـاحِ لفَهْمِ المُشْـكلاتِ الإنْسانيّة ومَنْهَجِ الخُلُوصِ إلى الحُلُـولِ الضّرورية، وهل تَحْمِلُ «الثَّقافـةُ» بأدبِها وفُنُونِهَـا وفَلْسفتِها هذا المِفْتَـاحَ أمْ أنّ «العلوم والتّقْنيـة» هي المُمْسِكَةُ بزِمَامِ الخَلاصِ؟. وعبْر التّاريخ خضعتْ المُجْتمعاتُ البشريّةُ لعمليّاتٍ مُضْنيةٍ ومُسْتمرّةٍ على طريق النُّضْجِ والنُّموّ والتَّطوُّر الثّقافيّ، وفي إطار تلك العمليّات يُثْبِتُ التّاريخُ أنّه كان – وما يزال – لـ«العلوم والتّقْنية» الدَّوْرُ الأبْرَزُ والأكْثَرُ فَاعِليّةً في إحْدَاثِ القفزاتِ الحياتيّة والتّغْييـراتِ الاجْتماعيّـة والتّطويرِ الاقْتصـاديّ؛ فاكْتشافُ أيِّ جماعـةٍ، أو اسْتِعَارَتُهَا، أو اسْتِخْدَامُهَـا لمبـادئ عِلْميّة، أو تَطْبيقُهَا لتقْنياتٍ حديثةٍ – مِثْـل: مَصْدَرٍ جديدٍ للطّاقة أو تَطْويرٍ في اسْتِخْدَامِ مَصْدَرٍ قديمٍ –، كان يقودُ مُباشَرَةً إلى آثارٍ عميقةٍ وتَغْييراتٍ مُتَتالية تَطْـرَأُ في العَلاقَـاتِ بين النّاس بعْضهم ببعْضٍ، وبين مُجْتمعهـم والمُجْتمعات الأُخْرى؛ وبالتّالي كانتْ تلك المُجْرَيَـاتُ العِلْميّةُ والتّقنيّةُ تَتْرُكُ بَصْمَاتُهَا الوَاضِحَةُ على «الثَّقافة». بطبيعـة الحـال، ليس آخِرُ هذه التّأْثيرات ما أحْدَثَهُ «عَالَـم الإنْترنت» ودُنْيا «الفيس بوك» و«اليوتيـوب» و«التّويتـر» وغيـر ذلك من عَوالِـم «الإعْلام الجديـد» من انْتشـارٍ للتّواصُلِ الاجْتماعـيّ ونَشْرٍ للتّفاعُلاتِ بين الجماعات والأفْراد علـى مُسْتوىً وَاسِع النِّطَاقِ؛ ممّا له تداعيـاتٌ ضَخْمَـةٌ – سَلْباً وإيجاباً – نَشْهَدُهَـا ونَعيشُهَا ثانيةً بثانيةٍ فـي مُخْتلف الأصْقَاعِ والبِقَـاعِ علـى المُسْتوى الحركيّ والسّياسـيّ والثّقافيّ والمُجْتمعـيّ والاقْتصاديّ والبَحْثيّ وغير ذلك من مجالاتٍ حياتيّة.

إذا كانـتْ «الحضـارة»، كمـا يـرى أوزوالـد سبنجلـر (Oswald Spengler) هي: (ثمـرةٌ لعبقريّـةٍ تَسِمُ عَصْراً مُعَيَّناً بمَيسَـمِ ابْتِدَاعٍ أساسيّ)[٢]، فـإنّ «الحركة العِلْميّة –

التّقنيّـة» هـي المَيْسَمُ المُهَيْمِـنُ والعَبْقريّةُ المُمَيِّـزَةُ للحضارة المُعَاصِـرَةِ التي بَدَأَتْ في التّشـكُّلِ مع بُزُوغِ «الثَّـوْرَةِ العِلْميّة» في القَرْنِ السّابع عشر الميـلاديّ. لقد اهْتَمّ كثيرٌ من المُفكّريـن والعُلمـاء بالتّأْثيـرات العميقة التي تَصْنَعُهَـا «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة» في المُجْتمعات[٢٠،٣٢،٤٤،٤٧،٨٦،٨٧،٨٨،٨٩]؛ وهذا هو محمد عابد الجابريّ يُؤَكِّدُ ذلك الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«العِلْم» في تَشْكيلِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وتَفْعيلِ أَنْشطتِها العَقْليّة والذِّهْنيّة، فيقول: (كُلُّ مـن لـه إلْمامٌ بتاريخ هذا الفِكْـر «أَيْ الفِكْر الأوروبيّ» يَعْرِفُ أنّ الثَّـوْرَاتِ الحَاسِمَةِ دَاخِلَهُ كانتْ ثَوْراتٍ عِلْميّةً من كوبرنيكس إلى غاليليو إلى نيوتن إلى آينشتاين وماكس بلانك إلى «الفِـرَقِ» العِلْميّة المُعَاصِرَة. ولا نَقْصِدُ هنـا تَطْبيقاتِ العِلْم من أَجْهِزَةٍ وآلاتٍ وصِناعاتٍ، بَلْ نَقْصِدُ أساساً آثَارَهُ العميقة، بَلْ تَأْثيرَهُ الحَاسِمَ في مُسْتوى مُرَاجَعَةِ المفاهيم وتَجْديدِ الرُّؤى، وبالتّالي في إعادة بَنْيَنَة العَقْلِ وتنْشيطِ فعّاليّاته بصُورةٍ مُسْتمرّة)[١].

وأمّـا أَبْرز «تَأْثيـرات العلوم والتّقْنية في المُجْتمعات» فيُمْكِـنُ إيجازُها في الجَوانِبِ التّالية:

١) التّأْثيـراتُ الثّقافيّـةُ المُبَاشِـرَةُ التـي تَنْعَكِسُ على تَعْديـلِ الأفْـكَارِ والأعْرَافِ والمفاهيـم والسُّلُوكيّاتِ التّقليديّـة أو تَصْحيحِ أو إلْغاءِ الكثيـر منها، كما أنّها تَدْفَعُ إلى اكْتِسَابِ مُمَارَسَاتٍ وأفْكَارٍ وتصوُّراتٍ يَفْرِضُهَا نجاحُ «الحركة العِلْميّة والتّقنيّة» وتراكُماتُها المُتلاحِقَة.

٢) التّأْثيـراتُ التّقنيّة والأدواتُ التّطْبيقيّة التي غَيَّـرَتْ أَنْمَاطَ الحياة على مُخْتلف الأصْعِـدَة، ومَيَّـزَتْ «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَـة» عن غيرهـا صِناعيّـاً وعَسْكريّاً واجْتماعيّـاً واقْتصاديّـاً؛ فـ«التّقنيـةُ» ذات «طبيعـةٍ اقْتِحَاميّةٍ»[٩٠] لهـا القُدْرَةُ الذّاتيّـةُ على غَزْوِ المُجْتمعات بمـا تُوَفِّرُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَـاتٍ وابْتِكَاراتٍ، سَواءً كانتْ تلك المُجْتمعات رَافِضَةً لها، أو حَذِرَةً من آثارِها.

٣) التّأْثيراتُ البيئيّةُ والاجْتماعيّةُ والسّياسيّةُ؛ فقد أَصْبَحَ «المُجْتمع الحديث» أكْثر عُضْويّةً في التَّرَابُطِ والتَّكَامُلِ بين أجْزائِه، بحيث يتنامى الاعْتِمَادُ بين مُكَوِّنَاتِهِ

المُتَعَـدِّدَة. إنّ نُموّ أوْجُهِ التّعدُّديّة، وزيـادة درجة التّشَابُكِ بين تفرُّعاتِ الحياة المُخْتلفة، يُؤدِّيـان إلى بُرُوزِ مؤسَّسَاتٍ مَدَنِيّـةٍ ذات اهْتماماتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لتتعامل مـع الآثار والتّفاعُلات المُخْتلفة لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وهذا - بدَوْرِهِ - يَفْرِضُ تغيُّراتٍ سياسيّةً في إطَارِ التّرْكيبة الدّاخلية للدّولة أو في عَلاقَاتِهَا مع غيرها من دُول العَالَم.

٤) الآثـارُ الفَلْسفيّـةُ والقِيميّـةُ النّاتِجَةُ عن هَيْمَنَـةِ الإنْسان على بيئتِـه وسَيْطَرَتِهِ علـى أنْمَاطِ حياته، وتفاعُـلِ الفَلْسفة والفِكْـرِ الإنْسانيّ مع إفْـرَازَاتِ «المَنْهَجِ العِلْمـيّ»، وطُـرُقِ تَفْكيـرِه، وآليّـاتِ تَحْليلِـه وتصوُّراتِه حول الحيـاة والطَّبيعة والكَـوْن، وكان من آثارهـا - على سبيل المِثـال - الحركةُ الفَلْسَفِيّـةُ المُسَمَّاة «الفَلْسَفَـة التَّجْريبيّة المَنْطقيّـة»، أو «الفَلْسَفَة الوَضْعيّـة المَنْطقيّة»، وقد أدَّتْ هـذه «الفَلْسَفَةُ التّجْريبيّةُ» بالفِعْـل دَوْراً لا يُمْكِنُ تجاهلُه في تَكْوين جَوانب عِدّةٍ من «العلوم الإنْسانيّة» وتَطَوُّرِهَا، مِثْل: «عِلْمِ النَّفْس» و«عِلْمِ الاجْتماع»[٩١].

٥) عمومـاً إذا اتَّفَقْنَا مع محمد عابد الجابريّ[١] بـأنّ «الفِكْرَ» هو «مُحْتوىً وأداةٌ» تَرْبطهمـا عَلاقَـةٌ عُضْويّـة بالمُحيط الاجْتماعـيّ - الثّقافيّ الـذي يَنْتَمِي إليه هـذا الفِكْر، فإنّـه يَتَّضِحُ حَجْمَ التّأْثيرِ الـذي يُمْكِنُ أنْ يُحْدِثَـهُ «الفِكْرُ العِلْميُّ» علـى «الثَّقافـة»، ونُظُمِهَا المَعْرفيّـة، وأدواتِها اللّغويّـة، وفَاعِليّتِها الاجْتماعيّة، وتفاعُلاتِهـا المُخْتلفة. بَلْ إنّنا نَسْتطيعُ أنْ نَعْـزُوَ الفَرْقَ بين «العَقْلِ العربيّ» في رُكُودِهِ واجْتِـرَارِهِ وسُكُونِهِ وتناقُضاتِه، وبين «العَقْلِ الغَرْبيّ» في حيويّتِهِ وحركتِه وديناميكيّتِـه، إلـى غِيَـابِ «الثَّقافة العِلْميّـة» و«الفِكْـرِ التَّجْريبـيّ» و«الحَاسَّةِ النّقْديّة» في «الثَّقافة العربيّة».

وفي هذا السِّياق يَتَطَرَّقُ عبـد الرحمن المحسني[٩٢] إلى «أَثَرِ التَّقْنية» في «التَّكْوين الفِكْـريّ» الذي يَصْنَعُ «النَّصَّ الأدبيّ» حيث يُؤَكِّدُ هذه الظّاهِـرَةَ فيقول: (يَمْتَزِجُ كُلُّ أدبٍ بالعَصْرِ الذي يَنْبُتُ فيه الأدب، ومن هنا فإنّنا لكي نَسْتطيع أنْ نُقَدِّمَ وَعْياً شَامِلاً لحقيقة «الأدب العربـيّ» يجب أنْ نَدْرُسَ مُعْطيات العَصْرِ دراسةً جيِّدةً، ونَفْهَمَ حالة التّناغي بين

الأدب والعَصْر. ومن أهمّ ما يُمَيِّزُ عَصْرَنَا سُرْعةُ التّواصُلِ بين أطْيافِه الفِكْرية المُخْتلفة الـذي هَيّـأَهُ التَّوَاصُلُ التّقنيّ، وبالطّبع والأَمْرُ كذلك أنْ نرى أدبـاً مُخْتلفاً عن كُلِّ العُصُورِ السّابقـة؛ ممّـا يَعْنِي أنّ علـى دَارِسِ هذا الأدب أنْ يَعْلَـمَ أنّ المَعْرفة الزُّلْفَـى التي أَصْبَحَ النَّصُّ يَتَحَـرَّكُ بها في مدارٍ عَوْلَميٍّ من شَرْقِ الكَوْنِ لغَرْبِهِ ستكـون مُؤثِّرةً أيّما تَأْثيرٍ على صُنْعِ الأدب دِراسةً ونَصّاً)، وفي الوَقْت ذاته يرى عبد الرحمن المحسني أنّه: (يجب أيضاً أنْ نَعِيَ أنّ من أهمّ سِمَاتِ العَصْرِ «الجَانِبَ التِّقانيّ»، وأثره الفَاعِلَ على النَّصّ، وإذا كانتْ «التَّقْنيةُ» قد أَلْقَتْ بِظِلالِهَا على كُلِّ مُعْطياتِ حياتنا، فيجب أنْ نُؤمِنَ بأثرها على التَّكْوين الفِكْريّ الذي يَصْنَعُ النَّصّ؛ فالنَّصُّ الذي يَسْتَجِيبُ للمنْبر التّلفزيونيّ والإذاعيّ، ورسائِل الـ sms، والوسائِط، والنَّصّ الحاسوبـيّ...؛ كُلُّ هذه المُعْطيات التّقنيّـة المُعَاصِرَة تُؤثِّرُ علـى إنْتاج النَّصّ، وهي تَحْتَاجُ إلى نَاقِدٍ حَاذِقٍ قَادِرٍ علـى التّوَاصُلِ مع أبْعَادِهَا، وظِلالِهَا على النَّصّ).

وهكذا يَتَّضِحُ أنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» قد طَبَعَتْ هذا العَصْرَ بطابعِها المُمَيَّز، واحْتَلَّـتْ مَوْقِعاً مَرْكزيّـاً لا يُمْكِنُ إنْكَارُهُ أو تجاهُلُه، وتزدادُ قُـدْرَةُ هذه الحركة على تَغْيير العَالَـم وتتنامـى أهميّة دَوْرِهَا ونحن نُعاصِـرُ العَقْدَ الثّاني من «الأَلْفيّـة الثّالثة»، ونتعاملُ مـع «ثَوْرَةِ المَعْلُومـات» وتَدَفُّـقِ «العَوْلَمَة»، وضُغُـوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهـذا هو الفَارِقُ الرَّئيس بين المُجْتمعات، وهو الذي يُحَدِّدُ حالتها في «أنْ تكون أو لا تكون»، ويَصِفُ جورج سارتون (George Sarton) هذا الفَارِقَ بقوله: (الفَارِقُ الفِكْريُّ العظيمُ بين البشر ليس بسبـب الجُغْرافيا والجَوانِب العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيـن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئك الذين لا يَفْهَمُونَهُ ولا يُطَبِّقُونَه)[٩٣].

أمّـا بلُغَـةِ «الفيزياء» فإنّنا نقـول: إذا كان «النيوترون البطيء» فـي «العلوم النّوويّة» هـو الذي يَبْدَأُ مـا يُعْرَفُ بـ«التَّفاعُلِ المُتَسَلْسِلِ» من الانْشِطَـارَاتِ في عُنْصُرِ «اليورانيوم» لتَنْطَلِقَ تلك الطّاقةُ الجَبَّارَةُ في «المُفَاعِلاتِ النّوويّة»، فإنّ «الثّقافة العِلْميّة» عند اخْتِرَاقِهَا لـ «الجَسَدِ الثَّقافيّ» للمُجْتمع هي القَادِرَةُ على بَدْءِ «التَّفاعُلاتِ التَّنْمَويّة»، وإطْلاقِ شرارة الطّاقـات الإنْتاجيّة، وضَبْـطِ مسيرة التّفاعُـلات الاجْتماعيّة، وتَطْويرِ الآفـاق الإنْسانيّة

والمدارك المَعْرفيّة. وما دُمْنَا في نِطَاقِ «الفيزياء النّوويّة» فإنّ من المُهِمّ أنْ نَعْرِفَ أنّ هناك «كُتْلَةً حَرِجَةً» من «المادّة المُشِعَّة» لازِمَةً لإحْدَاثِ «التَّفاعُلِ المُتَسَلْسِلِ» وإطْلاقِ «الطَّاقَة النّوويّة» من عِقَالِهَا، وبالمُقَارَنَةِ مع «الوَاقِعِ الثَّقافيّ» فإنّ هذا يَعْنِي أنّ هناك «تَرَاكُمَاتٍ كَمِّيّةً» من مُعْطياتِ «الثَّقافة العِلْميّة» وأطْيَافِهَا التي تقودُ - عند تَرَاكُمِهَا وبُلُوغِهَا ذلك «الكَمّ الحَرِج» - إلى إحْدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» التي هي تتويجٌ لتلك التَّرَاكُمَاتِ والتّفاعُلاتِ والطُّرُوحَاتِ في مضامير «الثَّقافة العِلْميّة».

٦-٣) «الثّقافة العِلْميّة»: المَدْخَلُ إلى تَفْكيك «إشْكَاليّة التَّنْمية»:

لقد وجدنا - في سِياق فُصول هذا الكِتاب - أنّ «إشْكَاليّة التّنْمية» في «المُجْتمعات العربيّة» تَكْمُنُ - أساساً - في «التَّرَدِّي المَعْرفيّ»، و«ضعْف الإنْتاجيّة»، وانْعدام الدَّوْرِ الحيويِّ في الإسْهَامِ في التّفاعُلاتِ والتّحوُّلاتِ المُعَاصِرَة. وأمّا أبْرز المُتطلَّباتِ للتَّصَدِّي لهذه التّحدّيات، فهو صِياغَةُ وتَأْسيسُ «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تُمَكِّنُ هذه المُجْتمعات من التَّغَلُّبِ على أزْمَتِهَا الثّقافيّة وإشْكَالاتِهَا التّنْمَويّة، ومن الضّروريّ والمَنْطقيّ أنْ تَنْبَثِقَ هذه «الثَّقافة» عن طبيعة العَصْرِ وظُرُوفِ المَرْحلة؛ فالحاجةُ مُلِحّةٌ لـ«ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تقومُ بدَوْرِ «الوَسَطِ» القَادِرِ على اسْتيعابِ مُعْطياتِ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، وتوفيرِ الشُّرُوطِ الخُلُقيّة والمَعْرفيّة والقِيميّة والسُّلُوكيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة المُتناغِمَةِ مع طبيعة هذه «الحركة» ومُقْتضياتِها. تلك «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» المُؤسَّسَةُ على «العِلْم» و«المَعْرِفَة» هي التي ستُوَفِّرُ «البِيئَةَ المُنَاسِبَة» لتَشْكيلِ تلك «الذِّهْنِيّة» التي وَصَفَهَا غازي القصيبي بأنّها «الذِّهْنِيّة التّنْمَويّة» وهي: (ذِهْنِيّةٌ عِلْميّةٌ بالدَّرجة الأولى، بمَعْنَى أنّها تَلْجَأُ إلى الأُسْلوبِ العِلْميّ في حَلِّ المشاكل بَدَلاً من التَّخَبُّطِ الخالي من كُلِّ مَنْهَجيّةٍ أو الانْجِرَافِ التِّلْقائيّ تِجاه الحُلُولِ الأيديولوجيّة)[١٠]. هذا - أيضاً - ما يُؤكِّدُهُ انطونيوس كرم بقوله: (إنّ التَّوَصُّلَ إلى اكْتشافاتٍ واخْتراعاتٍ هامّةٍ يكون مُرْتَبِطاً بالحاجات المُلِحَّة التي تُواجِهُ المُجْتمع وبطبيعة العَلاقَاتِ والحَوافِزِ السَّائِدَةِ أو المُتَاحَةِ في المُجْتمع. وإذا كان من المُسْتحيل التّنَبُّؤ بلحظة حُصُولِ اكْتِشافٍ أو اخْتِراعٍ ما، فإنّ أيَّ اخْتِراعٍ أو اكْتِشافٍ لا

يُمْكِـنُ اسْتغلاله والاسْتفادة منه عِلْميّاً واقْتصاديّـاً واجْتماعيّاً إلاّ إذا كان المُسْتوى العامّ للمَعْرفـة والعلوم والاقْتصاد مُتلائِماً مع تَحْقيقِ مِثْل هذه الاسْتفادة أو الاسْتغلال. فهناك في التّاريخ اكْتشافاتٌ واخْتراعاتٌ هامّةٌ ضَاعَتْ، أو اسْتَغَلّتْهَا حضاراتٌ أُخْرى، لعدم تَوَفُّرِ حوافِز ومُسْتوىً كافٍ من التّقدُّم الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ في البلد الذي تَمَّ فيه الاكْتِشاف أو الاخْتِـراع أصْلاً، أو لأنّ القِيَـمَ الاجْتماعيّة السّائِدَةَ كانتْ عَائِقـاً لاسْتِخْدامِ واسْتِغْلالِ هذه الاكْتِشافات والاخْتِراعات في مجالاتٍ تتناقضُ مع هذه القِيَم)[٨٥].

كُلُّ هـذه الاعْتبارات المُهمّة تَجْعَلُ من «الثَّقافـة العِلْميّة» «قَاطِرَةَ الثَّقافةِ المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَـةَ اللّازِمَـة لقيامِ «الثَّقافـة» بدَوْرِهَا التّنْمَويّ؛ ممّـا يَجْعَلُ «الثَّقافـة العِلْميّة» مِحْوراً مُهَيْمِناً من مَحَاوِرِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ومَدْخَلاً ضروريّاً لتَفْكيكِ «إشكَالِيّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْـدَةً فـي برامِجِ التّوعيـة والتّطْوير والمُشَارَكَـة، ومُكَوِّنـاً حيويّاً من مُكَوِّنَـاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة، وهذا ما يُؤكِّدُهُ جلين سيبورج بقوله: (بالإضافة إلى الحاجة إلى العُلماء المُدَرَّبين، وعُلمـاء الرّياضيّات والمُهندسين والعاملين غيـر المهنيّين المُلِمّين بتَجْهيزاتٍ تِقنيّةٍ مُعَقَّدَةٍ، فإنّ هناك حاجةً إلى فَهْمٍ وَاسِع النِّطَاق للعِلْم بين عامّة النّاس)[٤٤].

إنّ المُتَأَمِّلَ لظَاهِرَةِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، سيَخْلُصُ إلى أنّ «المُجْتمعات النّامية» ستظلُّ تـدورُ في حَلْقَاتٍ مُفْرَغَةٍ في لهاثِها وراء «نَقْلِ التّقْنيـة»، وتَطْويرِ التّعْليم، وتَنْشيطِ البَحْث، وتوطينِ الصّناعة، و«تَنْويعِ مصـادِرِ الدَّخْل»، ما لم تَهْتَمّ اهْتماماً حقيقيّاً بتشييدِ الجُسُورِ المتينـة مع «الفِكْرِ العِلْميّ» ومُعْطياته لتَشْكيلِ «العَقْـلِ العِلْميّ الجَمْعِيّ»، واسْتِنْبَاتِ «العلوم الحديثـة» في البِيئـة، لتمتدَّ جُذُورَهَا إلى أعْمَـاقِ الكيان المُجْتمعيّ، وتتفاعـلَ مع أنْسجتِه الثّقافيّـة وفعّاليّاتـه الفِكْريّـة، وتَتَّسِقَ مع تَوَجُّهَـاتِ مُثقّفيه وطُرُوحَـاتِ مُفكّريه وتفاعُلاتِ العامّة؛ فتتدافعُ الإسْهامـاتُ والإبْداعاتُ بفِعْلِ «الوَعْي العِلْميّ» السّائِد. أمّا عندما نَتَحَدَّثُ عـن «المُثقّفِ التّنْمَويّ» ووظيفتِـه الاجْتماعيّة ودَوْرِه التّوعويّ، فإنّه مـن الضّروري تَحْديد الشُّـرُوطِ اللّازِمَة لأداء تلك الوظيفة وإنْجاح مَقَاصِدِهَـا، وسنجدُ أنّ «الفِكْرَ العِلميّ» يُمَثِّلُ العمَادَ الرّئيسَ لمَنْظُومَةِ الشُّرُوط اللّازِم توفُّرها، وهذا هو جوهرُ القضيّة ولُبُّهَا، وهنا يَبْرُزُ

أيضـاً السُّؤالُ الاسْتِنْكَاريّ الـذي طَرَحَهُ جلين سيبورج: (كيف يُمْكِنُ للمُواطِن أنْ يَتَصَرَّفَ بحِكْمَةٍ بشأن موضوعاتٍ تُؤثِّرُ فيها قُوىً تَقَعُ خارِجَ نِطَاقِ الأُمُورِ التي يَفْقَهُهَا؟)[٤٤].

وأمّـا مَخْرَجُ «الثَّقافة العربيّة» مـن «المَأْزِقِ القديم - المُتَجَدِّد» فـي ظِلّ التّعامُلِ مع «تفاعُـلات السّاحة العَالَميّة» بكُلِّ عناصرِها ومُقَوِّمَاتِهَـا وآثارِها، فإنّه يَكْمُنُ في ما يُوجِزُهُ أحمـد زويل بقوله: (صحيـحٌ أنّ المنْطقة العربيّة تُعَانِي من نِزَاعَـاتٍ ومن مشاكل دَاخِليّةٍ تَسْتَنْـزِفُ جُلَّ قُدْرَاتِهَا ومَوارِدِهَا، ولكن يَتَعَيَّنُ على العـرب، إذا كانوا يُريدون الارْتِقَاءَ إلى مصافّ الدُّول المُتَقَدِّمَـة، أنْ يُحْدِثُوا نَهْضَةً عِلْميّةً حقيقيّةً، وليس تَغْييراً تدريجيّاً. والعِلْمُ والتِّكنولوجيا هما العُمْلَةُ الجديدةُ للقَرْنِ الواحد والعشرين، ولن يُمْكِن تَغْييرُ الوَضْع الرّاهِن دون تَحْسيـن مُسْتويات التَّعْليم والمهارات واسْتِحْدَاث «ثقافةٍ عِلْميّة»)[٧٠]. وأمّا عبد الغني عبـود، فلا يَتَصَـوَّرُ حُدُوثَ «تَنْميةٍ مـا»: (دون أنْ يَتِمَّ هـذا التَّغْييرُ المَنْشُـودُ للمُجْتمع في اتِّجَـاهِ «العِلْـم» و«التِّكْنولوجيا»، ففي ظِلِّهُمَا يعيشُ كُلُّ فَرْدٍ في العَالَم اليوم، حتى في البلاد المُتَخَلِّفَة، وفي إطَارِهِمَا يَتَحَرَّكُ كُلُّ مُجْتمعٍ مُعَاصِرٍ في شَتّى شُؤون حياته، حتى لو كان هذا المُجْتمـع مُتَخَلِّفاً، ومن ثـمّ فإنّ «التّنْمية» اليوم تَفْرِضُ ضَـرورةَ التّحْويلِ الفِكْريّ للمُجْتمع بأسْرِهِ إلى الرُّوحِ العِلْميّة وإلى التِّكْنولوجيا، وهما الدّعامتان الأساسيّتان لـ«التّنْمية»)[٢٢].

وهكـذا يَتّضِحُ أنّـه من الضّروريّ أنْ تُصْبِحَ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مُكَوِّناً رئيساً وعُضْويّاً فـي «الثَّقافة السَّائِدَة»، وأنْ تتفاعـلَ - بحيويّةٍ وديناميكيّةٍ - مع عناصرِها المُخْتلفة، لكي يَتَحَقَّـقَ ما أَدْرَكَهُ تشارلز سنو من ضَرورةٍ لـ«لمُجْتمعـات الغَرْبيّة» عندما قال: (يَنْبَغِي أنْ يَتِمَّ اسْتيعابُ العِلْم كجُزْءٍ لا يَتَجَزَّأُ من كَامِلِ تَجْرِبتِنَا الفِكْريّة، وأنْ يُسْتَخْدَمَ بشَكْلٍ طبيعيٍّ كما تُسْتَخْدَمُ بقيّةُ الأنْشِطَةِ الفِكْريّة)[٢٢].

٦-٤) الطّبيعة الاقْتِحَاميّة للعلوم والتّقْنية:

من بدهيّات الحيـاة المُعَاصِرَة أنّ الهَجْمَةَ التّقنيّة العِلْميّـة المُتسارِعَةَ والمُتعاظِمَةَ قـد غَيَّرتْ وَجْـهَ الأرْض، وانْطَلَقَتْ فـي أرْجَاءِ السَّمَـاء، وقَلَبَتْ المفاهيـم مَعَاشاً وفِكْراً،

وبَدَّلَتْ أنْمَاطَ الحياة وأشْكَالَ الحجر وتفاعُلاتِ البشر؛ ومن بَدَهِيّاتِهَا أنّ العَصْرَ هو «عَصْرُ العلوم والتّقْنية» فمن يُمْسِكُ بزِمَامِ تلك الحركة النَّشِطَة - بكُشُوفِهَا واخْتراعاتِها وتَطْبيقاتِها - يَفْرِضُ هَيْمَنَتَهُ على السّاحة العَالَميّة؛ فأَصْبَحَتْ الحاجةُ لتَبَنِّي الأنْظِمَةِ العِلْميّة والتّقنيّة من ضَروراتِ اسْتمراريّة حياة البشر وتَسْهيلِها وتَطْويرِها. وهكذا نجدُ أنّ «حركة العلوم والتّقنية» تَقْتَحِمُ المُجْتمعات، وهي تَفْعَلُ ذلك دون انْتِظَارِ الإذْنِ أو الحُصُولِ على المُوَافَقَة، وذلك بسبب ما تُقَدِّمُهُ من سِلَعٍ وخِدْمَاتٍ وتَطْويرٍ مُسْتمرٍّ لأنْمَاطِ العيش ووسائل الحياة، وما تُوَلِّدُهُ من احْتياجاتٍ مُتنامِيةٍ في مُخْتلف المجالات، وما تُؤَمِّنُهُ من ابْتِكَاراتٍ جديدةٍ مُتَتاليةٍ تَتَّسِمُ بجَوْدَةِ الأداء والرُّخْصِ ويُسْرِ اسْتِخْدَامِهَا فقد تكونُ أصْغَرَ حَجْماً أو تكونُ أقلَّ اسْتِهْلاكاً للطّاقة؛ وكُلُّ تلك الأسْباب وغيرها تَدْفَعُ إلى تزايد الطَّلَبِ عليها والتَّسَابُقِ في اقْتنائِها.

لقد أَدْرَكَ سليم البستاني في أواخِر القَرْن التّاسع عشر الميلاديّ هذه «الخَاصّةَ الاقْتِحَامِيّةَ للعلوم والتّقْنية» مُؤكِّداً أنّها تُمَثِّلُ «رُوحَ العَصْر»، وخَالِصاً إلى أنّه: (من حُسْنِ التَّدْبير المُوَافَقَةُ لرُوحِ العَصْر. لأنّ من لا يُوَافِقُهُ بالرِّضَى يُوَافِقُهُ على رَغْمِ أنْفِه)[٤]. ولكن فَهْمَ الشّكْلِ العامّ للظّاهِرَة لا يَعْنِي إدْرَاكَ خصائصِها المُمَيِّزَةِ أو اسْتيعابِ عناصرِها الأساس، كما لا يَعْنِي - على الإطْلاق - تَوَافُرَ القُدْرَةِ على التَّعَامُلِ معها بكفاءَةٍ، وتَطْويعَها بفاعِليّةٍ، والتَّكَيُّفَ معها بإيجابيّةٍ. ولذا فإنّ ما عهدناه في ثقافتنا من الإسْهَابِ في الإنْشائيّاتِ والجَدَلِ لا يَخْدِمُ في فَهْمِ هذه الظّاهِرَة، كما أنّه لم يَخْدِمْ أيَّ قضيّةٍ من قضايانا في الماضي أو الحَاضِر، بَلْ كان وبالاً وشُؤماً على الأُمّة عبْر تاريخها. بطبيعة الحال، كان من المُتَوَقّعِ لمِثْل ذلك الاقْتِحَامِ العَارِمِ أنْ يُوَلِّدَ في «المُجْتمعات العربيّة» رُدُود فِعْلٍ رَافِضَةً لهَيْمَنَتِه؛ فـ«مُقَاوَمَة التّغْيير» سُنَّةٌ كَوْنيّةٌ لا مناص عنها، ولكنّنا اعْتقدنا أنّنا تَغَلَّبْنَا على مِثْل هذه «المُقَاوَمَةِ» عندما سمحنا لأنفسنا بالتّمتُّعِ بمُعْطياتِ العِلْم ووسائِل التّقْنية، ولم نَتَنَبَّه إلى ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِنِ في وِجْدَانِنَا لهذه «المَنْظُومَة» التي تَقْتَحِمُ حياتَنا ومَأْكَلَنَا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنا الاجْتماعيّة والفِكْريّة، ويكونُ مَلاذُنَا الوَهْميّ - عادةً - هو ذلك «المَوْقِفُ الانْتِقَائيّ»، أو «الدَّعْمُ اللّفْظيّ»، وهما لا

يُقَدِّمَان شيئاً على طريق الإنْجاز الفِعْليّ، بينما نَسْتَمِرُّ في تَقْديم «التَّنَازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْت وَطْأَةِ العصْر ومُقْتضياتِه، ونَسْتَسْلِمُ لعُنْفوانِ «القُدْرَةِ الاقْتِحَامِيّةِ لحركة العلوم والتّقْنية».

لم تُدْرِكْ طُرُوحَاتُنَا ومَشْرُوعَاتُنَا واستراتيجيّاتُنَا المُخْتصَّةُ بـ«التّنْمية» أنّ «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» هي «رُوحُ التّنْمية» وجوهرُها الأصيل؛ فأيُّ تنْميةٍ تَحْتَاجُ إلى كِيانٍ عِلْميٍّ وتقْنياتٍ حديثةٍ قَادِرةً على مُوَاكَبَةِ التّغيُّراتِ المُتسارِعَةِ، والمُنَافَسَاتِ العَوْلَميّةِ، وحَلِّ المُشْكلات. ولذا فإنّ «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» ليستْ مُجَرَّدَ عناصِر مادّيّةٍ وأدواتٍ حِسّيّةٍ، ولكنّها أَعْمَقُ من ذلك بكثيرٍ؛ فهي تُوجِبُ إدْرَاكَ أنّ نِسْبَةً عاليةً من قُوى العمل والإنْتاج في مُجْتمعاتنا سوف تَتَّجِهُ - بضرورة مُتطلَّبات «سُوق العمل» - إلى العمل في مِهَنٍ وقطاعاتٍ «كثيفة الاسْتِخْدَام للعلوم والتّقْنية»؛ ممّا يَسْتَوْجِبُ التّعامُلَ مع الاحْتياجات النّفْسيّة والثقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة لهذه الشَّرائِح المُتنامية، التي أَصْبَحَتْ ظَاهِرَةً ضَاغِطَةً تَفْرِضُ نفْسها بقُوّةِ الإنْجاز، لتَعْبُرَ بحيويّةٍ من «عَالَم الأشْياء» إلى «عَالَم الأفْكار»، ويُصْبِحَ التّعامُلُ معها بَوْتَقَةً مُعَقَّدَةً، تتفاعلُ فيها عَوالِمُ فِكْريّةٌ وثقافيّةٌ واجْتماعيّةٌ وتَعْليميّةٌ وبَحْثيّة، وتُؤَثِّرُ فيها سُلُوكيّاتٌ فَرْديّةٌ وهُمُومٌ جماعيّةٌ ومُمَارَسَاتٌ إعلاميّة وعَوامِلُ اقْتصاديّةٌ وظُرُوفٌ سياسيّة.

إنّ المُتَأَمِّلَ في «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة للعلوم والتّقْنية» يرى نتيجَتَيْن لذلك «العُنْفوان الاقْتِحَاميّ» لا ثالث لهما؛ فإمّا أنْ تقود إلى الإغْرَاقِ في الاسْتِهْلاكِ والاتِّكَالِ على الآخَرين، وهذا اسْتِسْلامٌ مُرَوِّعٌ مُشَاهَدٌ في أرْجَاءِ عَالَمِنَا العربيّ؛ وإمّا أنْ تُوَلِّدَ «اسْتِجَابَةً إيجابيّةً» لـ«تَحَدٍّ صَارِخٍ» تقودُ إلى توليدِ عناصِر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مع هذه «المَنْظُومَةِ العِلْميّة - التّقنيّة» التي أَضْحَتْ قضيّةَ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة. وأمّا أهمّ مُقَوِّمَاتِ ذلك «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» فهي أنْ نُدْرِكَ أنّ لهذه «المَنْظُومَةِ» عناصِر «فِكْريّةً - ثقافيّةً - اجْتماعيّةً» مُتكَامِلَةً تَتَفَاعَلُ في «الوَعْي الفَرْديّ»، وتَلْتَفُّ حول «النَّسيج المُجْتمعيّ» لتَصْنَعَ «البيئة المُنَاسِبة» القَادِرَةَ على التّعامُلِ - بفَاعِليّةٍ وحيويّةٍ - مع تلك «الطَّبيعة الاقْتِحَامِيّة»، وتَطْويعِهَا لما يُحَقِّقُ المنافِعَ والأهْداف المَنْشُودَة. وهكذا تَبْقَى «الطَّبيعةُ الاقْتِحَامِيّةُ للعلوم والتّقْنية»

حقيقـةً رَاسِخَةً مُتنامِيةً لا مِرَاء فيها - شِئْنا أمْ أبَينا -، ويَبْقَى الخِيارُ أمامنا إمّا الإغْراق فـي إنشائيّاتِنا ومواعظِنا وقصائدِنا بينما يَنْدَفِعُ «الطُّوفَانُ الاسْتِهْلاكيّ» و«المَدُّ الاتِّكَاليّ» ليَقْتَلِعَ الجُذُورَ ويُقَوِّضَ دَعَائِمَ التّماسُك، وإمّا أنْ نَفْهَمَ خصائِصَ ذلك الطُّوفَان، ونُرَوِّضَ مَنَابِعَه، ونَرْكَبَ مَوْجَتَه، ونَسْتَوْعِبَ ثقافتَه، ونَنْطَلِقَ في ساحاتِه.

٦-٥) «الثّقافة العِلْميّة» في «التَّجْرِبَة الغَرْبيّة»:

لقـد أثارتْ أُطْرُوحَةُ تشارلز سنو[٣٢] عـن «إشْكَاليّةِ الثَّقَافَتَيْن» جَدَلاً كبيراً في العَالَم الغَرْبـيّ (انْظر الفَصْل الثّاني)، وما زالـتْ آثارُها تتفاعلُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. وبالرّغْم مـن أنّ طَـرْحَ سنو كان طَرْحـاً نُخْبَويّـاً؛ أَيْ أنّه كان مَعْنِيّـاً - في المقـام الأوّل - بالنُّخَبِ الفِكْريّـة، ونَاقِـداً لانْعِـدَامِ التَّوَاصُلِ بين أصْحـاب «التّخصُّصات الأدبيّـة والإنْسانيّة» من جِهَـةٍ، وبين أصْحاب «التّخصُّصات العِلْميّة» من جِهَةٍ أُخْرى، إلاّ أنّه - في تفاعُلاته وآثارِه وامْتداداته - أَكَّدَ ضَرورةَ إقامةِ الجُسُورِ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «الجُمْهُور» بشَكْلٍ عامّ.

لقد رأى كثيرٌ من المُفكِّرين أنّ التّفاعُلَ بين «الحركة العِلْميّة» وبين «المُجْتمع» ضَرورةٌ لا منـاص عنها لتَطْويرِ «المُجْتمع العِلْميّ» الـذي يستمدُّ متانته من «التَّكَامُلِ البُنْيويّ» بين أجْزائِـه و«التَّرَابُطِ العُضْويّ» بين عناصرِه ممّا يَجْعَـلُ «التَّقَدُّم العِلْميّ - التِّقْنيّ» مَحْكُوماً بمـدى تفاعُلِ الجماهير معه وحماسِهم له وإدْراكِهم لأبْعادِه واسْتجابتِهم لمُقْتضياته[٨٦]. وهـذا مـا تُقَرِّرُهُ الرُّؤيـةُ العِلْميّة - الثقافيّـة - التَّعْليميّة التي طُرِحَتْ فـي أرْجاء الولايات المُتّحدة الأمريكيّة في دَليلٍ يُعْرَفُ باسْم «العِلْمُ لكُلِّ الأَمْريكان»[٩٤] حيث ورد فيه: (يُمْكِنُ لعادات العَقْلِ العِلْميّة مُسَاعَدَة النّاس في كُلِّ مناحي الحياة للتّعامُلِ بحِكْمَةٍ مع المُشْكلات التـي غَالِبـاً ما تَنْطَوِي علـى الأدِلَّة، والاعْتبـارات الكَمِّيّـة، والحُجَجِ المَنْطقيّـة، والشَّكّ؛ ولـذا فإنّه بدون القُدْرَةِ على التَّفْكيـرِ النَّقْديّ وبشَكْلٍ مُسْتَقِلٍّ، فـإنّ المُواطِنين يُصْبِحُون فريسةً سَهْلَـةً للمُتعصِّبين والماهرين المُخَادِعين ومُزَوِّدِي الحُلُـولِ البسيطة للمُشْكلاتِ المُعَقَّـدَة)؛ وفـي مقام آخَر يُؤَكِّدُ هذا الدَّليل - أيضـاً -: (إنّ قُدْرَةَ تَعْزيزِ الحياة الكَامِنَةِ فـي العِلْـمِ والتِّقْنية لا يُمْكِـنُ تَحْقيقُها، ما لم يَتَمَكَّنْ الجُمْهُورُ بشَـكْلٍ عامٍّ من فَهْمِ العلوم

والرِّياضيــات والتِّقْنية، واكْتِسَاب عادات العَقْلِ العِلْميّة. إنّه بدون مُواطِنين يَتَمَتَّعُون بوَعْيٍ عِلْميٍّ فإنّ اسْتِشْراف عَالَمٍ أفْضل لا يكون وَاعِداً).

وأمّا فيما يَتَعَلّقُ بتَرْسيخِ «الثَّقافة العِلْميّة» في «التَّرْكيبة الثَّقافيّة العَامّة»، فقد أَدْرَكَتْ «المُجْتمعــاتُ الغَرْبيّةُ» أهميّة «الكَمِّ» و«الكَيْفِ» في آنٍ وَاحِدٍ، كما حَرَصَتْ تلك المُجْتمعات علــى الاسْتفــادة من «القانون الفيزيائيّ» الــذي يَنُصُّ على أنّ (التَّراكُــم الكَمّيّ يقودُ إلى تَغَيُّــرٍ نَوْعِيّ)، وهي حقيقةٌ يصوغُهــا محمد عابد الجابريّ قائِــلاً: (إنّ العَلاقَةَ بين الكَمِّ والكَيْــفِ في عمليّــة التّقَدُّم عَلاقَةٌ جَدَليّةٌ، عَلاقَةُ تَأْثيرٍ مُتَبَــادَلٍ: إنّ اتِّسَاعَ الكَمِّ شَرْطٌ في نُمــوِّ الكَيْــف، ونُموُّ الكَيْف شَرْطٌ في تَعْميــقِ جُذُورِ الكَمّ)[١]. من هــذا المُنْطَلَقِ برز الدَّوْرُ الحَاســمُ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في تَطَوُّرِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، وراحتْ جُهُودُها تَتْرَى – كَمّاً وكَيْفاً – في توسيعِ نِطَاقِ «الثَّقافة العِلْميّة» وتَرْويجِ وسائِلها، ووجدتْ مَقُولَةُ «العِلْمُ للجميع» عنْدهــم حُضُوراً مُمَيَّزاً واهْتماماً مُكَثَّفاً من صَانِعي القرار، وأَصْبَحَتْ هذه المَقُولَةُ شِعاراً قوميّــاً وأولويّةً بَارِزَةً فــي التَّخْطيط والاهْتمام والدَّعْمِ في «الــدُّول المُتَقَدِّمَة»، كما بَرَزَتْ علــى السّاحة عنْدهم حِواراتٌ وندواتٌ ومُؤَلَّفاتٌ وإصْداراتٌ تُرَكِّزُ – بعُنْفوانٍ – على قضيّة «العِلْم والمُجْتمع».

وهكــذا نشطتْ فــي «العَالَمِ الغَرْبــيّ» البرامِجُ المُخْتلفــةُ لـ«التَّوعيــة العِلْميّة»، وهي المُمَارَســةُ الفَاعِلَةُ لنَشْرِ «الثَّقافة العِلْميــة»؛ فراحتْ المطابِعُ تَقْذِفُ يوميّاً عشرات الكُتب والنَّشرات والدَّوريّات في مجالاتٍ مُخْتلفةٍ من العلوم لتَبْسيطِهَا وطَرْحِ حَقَائِقِهَا وأهْدافِها فــي سلاسةٍ ويُسْرٍ، واحْتَضَنَتْ وسائِلُ الإعلام طُرُوحَاتٍ وبرامِج وتَوجُّهَاتٍ تُعْنَى بـ«الثَّقافة العِلْميّــة»، وتَعَــدَّدَتْ الوسائِــطُ والنّــدواتُ والمُحاضــرات، وتأسَّسَتْ عنْدهــم الجمعيّاتُ والهيئــاتُ العِلْميّــة – على المُسْتــوى المحلّيّ والقُطْــريّ والدّوليّ – المُهْتَمّــةُ بالتّفاعُل مع «الجُمْهُــورِ» وتَهْيئَــةِ «مُنَاخٍ عِلْمــيٍّ» يُسَاعِدُ علــى زَرْعِ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي تُرْبَةِ المُجْتمع، وتَغَلْغُلِهَــا في نسيجِه. وأمّا على المُسْتوى الفِكْريّ والأكاديميّ فقد تَعَمَّقَ عندهم الاهْتمامُ بموضوعات «تاريخ العلوم» و«فَلْسَفَة العلوم» و«اجْتماعيَّات العلوم» ممّا رَسَّخَ أُصُولَ التّفاعُلِ الجَــادِّ بين «العلــوم الإنْسانيّة» و«الفِكْرِ العِلْميّ»، ونَجَمَتْ عــن ذلك رُؤىً عميقةٌ في طبيعة

تَرْكيب «المَعْرِفَة العِلْميّة» وطريقة اعْتمادها على «التَّكْوين الثقافيّ» للمُجْتمع من أعْرَافٍ ومُمَارَساتٍ وقِيَمٍ وأفْكار. لقد تَبَلْوَرَ عن كُلِّ ذلك إدْراكٌ وطيدٌ بأنّ «العلوم» هي «مَنْظُومَةٌ من الأنْشطة الثَّقافيّة» تُمَثِّلُ تَعْبيراً لتَوجُّهِ المُجْتمع نحو العَالَمِ والكَوْنِ والحياة، تماماً كما تُعَبِّرُ الفُنُونُ والأدْيانُ عن تَوَجُّهَاتِ ذلك المُجْتمع، ممّا يَعْنِي عدم إمْكانيّة فَصْلِ العلوم عن القضايا الأساس في السّياسة والأخْلاق والاقْتصاد والتّفاعُلات الاجْتماعيّة، ويُلَخِّصُ كونراد وودنجتون (C.H.Waddington) تلك الرُّؤية بقوله: (العِلْمُ ليس فقط مَجْمُوعَةً من الوسائِل، ولكنّه تَوَجُّهٌ نحو العَالَمِ وطريقةُ حياة)[٨٩].

وأمّا السُّؤالُ الاسْتِنْكَاريّ الذي يَطْرَحُهُ جلين سيبورج بقوله: (مَنْ في زماننا هذا يَسْتطيعُ أنْ يقوم بنَقْدٍ مَقْبُولٍ للحياة دون مَعْرِفَةٍ قِيَمٍ وطُرُقٍ وديناميكيّةِ العِلْم؟)[٤٤]، فإنّه سُؤالٌ كبيرٌ في مضامينِه وأبْعادِه وتَبِعَاتِه؛ فلقد أَصْبَحَ من البدهيّات المَعْرُوفَةِ أنّ القضايا المُعَاصِرَة إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لآثار «العلوم والتّقْنية»، أو أنّها إفْرازاتٌ جَانِبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّة» وتَسَارُعِهَا المُذْهِل؛ وفي كِلْتا الحَالَتَيْن، فإنّ المُجْتمعات في حاجةٍ إلى «رُؤيةٍ عِلْميّةٍ» لفَهْمِ هذه التّأثيرات والتّعامُلِ معها بكفاءَةٍ ونُضْجٍ، ولكنّ الإشْكَاليّة الكُبْرى تَبْقَى في أنّ القضيّة ليستْ قضيّة مَجْمُوعَاتٍ من أهْلِ الاخْتصاصات العِلْميّة تَجْتَمِعُ ثم تَنْفَضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَلِ وطَرْحِ الحُلُول، ولكنّها قضيّةُ مُجْتمعٍ بأسْرِه، يتعاملُ مع المُسْتَجِدَّاتِ سَلْباً وإيجاباً، وهي قضيّةُ أفْرادٍ يُمَارِسُون حياتهم اليوميّة، فيُؤثِّرُون ويَتَأَثَّرُون، وهي قضيّةُ أخْطَاءٍ وإبْدَاعَاتٍ وإحْبَاطَاتٍ وإنْجَازَاتٍ تتفاعلُ في بَوْتَقَةِ الفِكْرِ والمُمَارَسَة، وتصوغُ - في النّهاية - مُعادَلاتِ التَّفَوُّقِ أو صِفَاتِ الإخْفَاق؛ ومن هذا المُنْطَلَقِ تَبْرُزُ أهميّةُ «الوَعْي العِلْميّ الجَمْعيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة».

٦-٥-١) بين «الثّقافة العلميّة» و«الدِّيموقراطيّة»:

لقد أَدْرَكَ «المُجْتمعُ الغَرْبيُّ» أهميّة «الثَّقافة العِلْميّة» لسببَيْن رئيسَيْن[٤٤]:

١) إنّ القَاعِـدَةَ الجماهيريّةَ العريضـةَ المُتفاعِلَةَ مع «الفِكْـرِ العِلْميّ» والمُتواصِلَةَ مـع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» هـي مَنْبَتُ المَواهِبِ ومُسْتَودَعُ القُدْرَاتِ ومَكْمَنُ الطّاقات، وهي التي تُزَوِّدُ المُجْتمع بالعُلماء والباحثين والتّقنيين، وكُلّما اتَّسَعَتْ هـذه القَاعِدَة، نَمَتْ احْتمـالاتُ الإبْداع والإنْجـاز، وزادتْ فُرَصُ بُـرُوزِ العُقُولِ المُبْدِعَةِ والكفاءاتِ المُنْتِجَة.

٢) لقـد كان للاعْتبارات السّياسيّة والاقْتصاديّـة أثرٌ كبيرٌ في الاهْتمام بـ«الثّقافة العِلْميّة»؛ فـ«دَافِعُ الضَّريبةِ» عنْدهم هو الذي يُؤثِّرُ - بمُتابعاتِه ومُسَاءَلاتِه - في أوْجُهِ الإنْفَـاق، وبالتّالي فإنّ الدَّعْمَ الماليّ الضّخْمَ المَطْلُوبَ لمُخْتلف البرامِج والمَشْرُوعات العِلْميّة يتطلَّبُ درجةً عَالِيةً من «الاسْتِحْسَانِ الثّقافيّ» للعلوم بين العامّـة. وفي هذا السّياق يقول جليـن سيبورج[٤٤]: (إنّ مبـادئ العلوم تُهَيْمِنُ علـى العديد من قضايا اليوم والغد الحَاسِمَة، فـإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة هو مُمَارَسَةُ التّأْثيرِ من قِبَل مُواطِنين مُزَوَّدِين بالمَعْلُومَاتِ كما أَعْتقد، فإنّ هذا يَعْنِـي أنّ فَهْمَ المبادئ الأساسيّة لـ«العِلْم» يَنْبَغِـي أنْ يكون مُؤسَّساً بشَكْلٍ وَاسِعٍ فـي المُجْتمع)؛ ويَصِفُ سيبـورج «العِلْم» بقوله: (إنّ لديه قُـدْرَةً لم تَتَوَفَّرْ لأيِّ أداةٍ أُخْـرى عرفهـا الإنْسان، ولذا فإنّه بدون مَعْرِفَـةِ مبادئه العامة، فإنّنا غير جَاهِزين للأداء السّليم في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ في عَصْرِ الفضاء).

ما هو أهمُّ من ذلك، وهي قضيّةٌ مَطْرُوحةٌ - بامْتيازٍ وبقَلَقٍ - أمام «الدُّول النّامية»، أنّ نُموَّ «الدِّيموقراطيّة» يَحْتَاجُ إلى تَوَافُرِ شُرُوطٍ فِكْريّةٍ ومُجْتمعيّةٍ وعمليّةٍ تَتَجَسَّدُ - بشَكْلٍ جَلِيٍّ - في مفاهيم «العلوم والتّقْنية» وتَأْثيراتِها ومساراتِ عملها؛ فلم يكنْ الأمْرُ مُصَادَفةً أنّ نُمـوّ «الدِّيموقراطيّة» فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّة» منْذ القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ كان مُوَاكِبـاً للتَّطَوُّرِ العِلْمـيّ، والكُشُوفَاتِ الطّبيعيّة، وما تَرَتَّبَ عليها مـن آثارٍ عمليّةٍ وتطوُّراتٍ اقْتصاديّـةٍ وتغيُّـراتٍ مُجْتمعيّـةٍ. فليـس من المَعْقُـولِ أنْ نقـول إنّ شُعُوبَ ما قبـل القَرْنِ السّابـع عشـر كانتْ غبيّـةً أو لا تَعْرِفُ معانـي «الدِّيموقراطيّة» ودَلالاتِهَـا خَاصَّةً وأنّ هذا المَفْهُـومَ قديـمٌ ومُتَأصِّلٌ في «الفِكْرِ اليونانيّ»، ولكن انْعِـدَامَ «الشُّرُوط الموضوعيّة» ذات

التّرَاكُمَـاتِ الفِكْريّـة والعِلْميّـة والاجْتماعيّة والعمليّة هـي التي أَخّرَتْ بُـرُوزَ الظّاهِرَةِ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة».

إنّ التّفاعُـلاتِ السّريعة وشِبْـهَ الآنيّةِ التي تَطْرَأُ على «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» في ظِلِّ التَّضَافُـرِ بيـن «الدِّيموقراطيّـة» و«الثَّقافة العِلْميّـة» تَتَجَلَّى في أَمْثلـةٍ لا حَصْرَ لها؛ فعلى سبيـل المِثال تَمَخَّضَ السَّبْقُ الفضائيّ، الذي أَحْرَزَهُ «الاتّحاد السّوفييتي» في عام ١٩٥٧م بإطْلاقِـه «قَمَرًا سبوتنيك»، عن زَوْبَعَةٍ فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّة»، ونشط جَدَلٌ وَاسِعٌ حول جَوانِبِ الإخْفَاقِ في مَنْظُومَتِهِمْ العِلْميّة والثّقافيّة، وأَدَّى في الوَقْت نفْسه إلى قِيامِ الرّئيس الأمريكيّ أيزنهاور بتَأْسيس «وكالة الفضاء الأمْريكيّة (ناسا)» في عام ١٩٥٨م، كما طلب مـن «اللّجنة الاسْتشاريّة العِلْميّـة» المُرْتَبِطَةِ به، وكان أحـد أعضائها جلين سيبورج[٤٤]، أنْ تَتَوَلَّـى دِراسة بعْض هذه المُشْكلات، وبالفِعْل قَدَّمَتْ له اللّجنة في عام ١٩٦٠م تَقْريراً بعنْـوان (التَّعْليمُ لعَصْرِ العلوم). لقد أَكَّدَ ذلـك التّقْريرُ الدَّوْرَ الحيويّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» فـي المُجْتمعات المُعَاصِرَة حيث ورد فيه مـا يلي: (إنّ المُواطِنين في مُجْتمعٍ ديموقراطيٍّ اليوم يَنْبَغِي أنْ يَفْهَمُوا «العِلْمَ» لكي تكون لهم مُشارَكَةٌ وَاسِعَةٌ وذكيّةٌ في كثيرٍ من القرارات القوميّـة. إنّ هـذه القرارات في طَـوْرِ الصُّنْع الآن، ولا يُمْكِنُ تَأْجيلُهَـا لمُدّةِ عشرين عاماً ريثمـا نقومُ بتَحْسيـن نِظَامِنَـا التّعْليميّ الحالـيّ عندما يُكَـوِّنُ خرِّيجُوه نِسْبَـةً مُهمّةً من النّاخِبين النّاضِجين. وبالتّالي فإنّه لا مَفَرَّ من الاضْطِرَارِ الآن إلى تَزْويدِ الكِبَار بتَعْليمٍ في العلوم يكون مُكَثَّفاً وعالي المُستوى ومُوَجَّهاً إلى أولئك الذين لا يعرفون حتّى الأساسيّات)[٤٤]. وهكـذا أَصْبَحَتْ «الثَّقافةُ العِلْميّةُ» مِعْيـاراً يُقَاسُ به مُسْتوى تَطَوُّرِ المُجْتمعات، فعلى سبيل المِثال اتَّفَقَتْ الدُّولُ الأعْضاءُ في «مُنَظَّمَةِ التَّعَاون الاقْتصاديّ والتّنْمية» (OECD) على إعْدَادِ برنامجٍ يَهْدِفُ إلى تَقْويم مدى إمْكانيّات الشَّبَاب من فِئة عُمْرِيّةٍ مُحَدَّدَةٍ بـ«١٥ عاماً»، وقِياس درجـة اسْتعدادهم لمُواجَهَةِ الحياة العمليّـة، وجَعَلَتْ«الثَّقافة العِلْميّة» من أهمّ معايير البرْنامج التي مَكَّنَتْ من إجْراء التَّصْنيف[٩٥].

٦-٦) «الثقافة العلميّة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»:

لقد ضَرَبَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» التي انْطلقتْ في أوروبا في القَرْنِ السّابع عشر الميلاديّ أَطْنَابَهَا في مُخْتلف مناحي الحياة المُعَاصِرَة، وتَمَدَّدَتْ في رِحَابِ الأَرْضِ وآفاقِ السّمَاء، وراحتْ في تراكُم مُذْهِلٍ وتسارُعٍ حثيثٍ تُنْتِجُ قِلاعاً من الإنْجازات والمَعْلُومات والاكْتشافات فيما عُرِفَ بـ«انْفِجَارِ المَعْلُومات» لتَدْلِفَ البشريّةُ إلى عَالَمِ «مُجْتمع المَعْلُومات» ممّا قاد - بالضّرورة - إلى تحوُّلاتٍ جِذْريّةٍ في طبيعة «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» وخصائصِها وتفاعُلاتِها وعَلاقَاتِهَا؛ وهكذا من رَحِمِ «مُجْتمع المَعْلُومات» وُلِدَ «مُجْتمع المَعْرِفَة». ذلك ما يُؤَكِّدُهُ «التَّقْريرُ العَالَميّ لمُنَظَّمَةِ اليونسكو»[٨٣]، الصّادِر في عام ٢٠٠٥م تحت عنْوان «من مُجْتمع المَعْلُومات إلى مُجْتمعات المَعْرِفَة»، فيقول: («مَفْهُومُ المَعْرِفَة» هو في قَلْبِ هذه التَّحَوُّلات إذْ يُعْتَرَفُ اليوم بأنّ المَعْرِفَةَ أَضْحَتْ مَوْضِعَ رِهاناتٍ اقْتصاديّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ وَاسِعَةٍ إلى حَدٍّ أنّنا نَسْتَخْدِمُهَا في وَصْفِ المُجْتمعات التي نَبْدَأُ بالكاد في تَبَيُّنِ ملامحها). وأمّا ما يُمَيِّزُ «مُجْتمعاتُ المَعْرِفَةِ» فهو: (في قَلْبِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» هناك القُدْرَةُ على تَحْديدِ وإنْتاجِ ومُعالَجَةِ وتَحْويلِ ونَشْرِ واسْتِعْمَالِ المَعْلُومات لخَلْقِ وتَطْبيقِ المعارف الضّروريّة للتَّنْمية الإنْسانيّة، وهي تَسْتَنِدُ إلى رُؤيةٍ للمُجْتمع تُسَاعِدُ على الاسْتقلاليّة التي تَضُمُّ مفاهيم التَّعدُّديّة والانْخِرَاطِ والتّعاون والمُشَارَكَة)[٨٣]. وهكذا أَصْبَحَ الحديثُ اليوم هو عن «اقْتصاد المَعْرِفَة» حيث تكونُ «المَعْرِفَةُ» هي «المَادَّةُ الخَامّ» و«المُنْتَجُ الرَّئيس» في آنٍ وَاحِدٍ؛ فهو، بشَكْلٍ عامٍّ، ذلك الاقْتصادُ الذي تُؤَسِّسُهُ العناصِرُ البشريّة، وتُطَوِّرُهُ المُؤسَّسَاتُ الاجْتماعيّة القَادِرَةُ على اكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ الحاليّة والمُسْتقبليّة، واسْتِيعابِها، وإنْتَاجِها، ونَقْلِها، وتَسْويقِها، بفَعّاليّةٍ وكفاءَةٍ لرَفْعِ درجة النُّموّ والقُدْرة التّنافُسيّة في الاقْتصاد.

تلك التَّحَوُّلاتُ الجِذْريّةُ في «التّفاعُلاتِ المَعْلُوماتيّة» من ناحيةٍ، و«التَّطْبيقات الاقْتصاديّة» من ناحيةٍ أُخْرى، أَعْطَتْ أَبْعاداً جديدة لـ«مَفْهُوم التّنْمية»، وتَمَخَّضَتْ عنها عناصِر حيويّةٌ في «التَّفاعُلات الاجْتماعيّة والثَّقافيّة»، فبينما (يَرْتَكِزُ مَفْهُومُ «مُجْتمع

المَعْلُومـات» على الإنْجـازات التّكْنولوجيّة فإنّ مَفْهُـومَ «مُجْتمع المَعْرِفَـة» يَتَضَمَّنُ أبْعَاداً اجْتماعيّـةً وأخْلاقيّةً وسياسيّةً أكْثـر اتِّسَاعاً بكثير)[٨٣]؛ وهكذا أَصْبَـحَ الحديثُ الرّئيسُ فـي «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» هو عن بُـزُوغِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» وسعيهـا الحثيث إلى تَمْكينِ قَواعِـدِهِ وتَرْسيـخ أرْكَانِـهِ وتَطْويـرِ فَعّاليّاته. وأمّـا «المُجْتمعـاتُ النَّاميةُ» فـإنّ فُرْصَتَهَا الوحيـدة، لأيِّ مُسْتَقْبَلٍ يُرْتَجَى في «الأَلْفيّـة الثّالثة»، تَكْمُنُ في مُحاولة التّعامُلِ مع شُرُوطِ «مُجْتمـع المَعْرِفَـة» والتّفاعُلِ مع مُقْتضياتِـه، وأَصْبَحَ أهمّ ما يَقْبَعُ فـي قَلْبِ التّحدّيات هو ذلك «التّدافُعُ المُجْتمعيّ والثّقافيّ والفِكْريّ والمَعْرفيّ» المُنْطَلِقُ - بالضّرورة - نحو حَسْمِ القضايا في اتِّجَـاهِ التَّوَافُقِ مع مُتطلَّباتِ «العَصْرِ» عبْر تَأْسيس «مُجْتمع المَعْرِفَة» وتوطيد مُقَوِّمَاتِـهِ على ركائِز متينةٍ تجد في «الهُويّة» مَأْمَناً لها، وفي «الثَّوابِتِ» تَرْسيخاً لجُذُورِهَا، وفي «المُسْتَقْبَلِ» تناغُماً مع تفاعُلاتِهَا.

أمّـا المُشْكلـةُ فهي ليستْ - في رأْيـي[٧٨] - في تَعْريفِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة» أو تَحْديدِ أُسُسِـهِ ومُقَوِّمَاتِـه، حيـث لا تُوجَدُ هناك ألْغـازٌ أو أسْـرَارٌ، ولعلّ التَّحَـدِّي الأكْبر في هذا المسـاق أنّ التَّنْظيـرَ لـه سَهْلٌ طَيِّعٌ لَيِّـنٌ، ولذا تَزْخَرُ أدبيَّـاتُ الجامعـاتِ وإسْتراتيجيّاتُ المُؤسَّسَـاتِ - في العَالَم العربيّ - بالدّنْدَنَـةِ حول هذا المُصْطلح وغيره من مُصْطلحاتٍ أُخْـرى مُتناغِمَةٍ، مِثْل: «اقْتصاد المَعْرِفَة»، و«التّنْميـة المُسْتَدَامَة»، و«توطين التّقْنية». إنّ الانْتِقَـالَ من إطَـارِ الطُّمُوحِ والتَّنْظيرِ والتَّمنِّي، إلى وَاقِعِ التَّطْبيـقِ والمُمَارَسَاتِ والإنْجَاز، يُمَثِّـلُ - عـادةً - مَكْمَـنَ الفَشَلِ الرّئيس في تجـارِب «الدُّول النَّاميـة»، فتَرْديدُ المُصْطلح والتّغَنِّي به أمْرٌ «ليس عليه جُمْرُك» - كما يقولون -، ولكن السُّؤال هو: (هل اسْتَكْمَلَتْ هذه المُجْتمعـاتُ شُرُوطَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتأهَّلَتْ لمُتطلَّباتِه، أمْ أنّها تَقْفِزُ في فَرَاغٍ، وتَعْتَقِدُ أنّ من السَّهْلِ حَرْقَ المراحل؟).

إنّ «مُجْتمع المَعْرِفَة» في «العَالَم المُتَقَدِّم»هو «نَمُوذَجٌ مَعْلُوماتيٌّ - ثقافيٌّ - اجْتماعيٌّ» نَتَجَ عن تفاعُلاتٍ عميقةٍ - ثقافيّاً ومَعْلُوماتيّاً ومُجْتمعيّاً وتَعْليميّاً وبَحْثياً -، وشُرُوطٍ صَارِمَةٍ على عَوالِمِ الاقْتصاد والإنْتاج والابْتكار والاكْتشاف، وضَوابِطٍ حَاسِمَةٍ على مضامين القِيَمِ والمفاهيـم والمُمَارَسَات؛ وكُلُّهَا - عبْر وِلادَةٍ صَعْبَةٍ - اسْتطاعتْ - بتراكُماتِها المُتلاحِقة

- أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَةَ النَّوْعيّة» المطْلُوبَة؛ ولذا فإنّه لا يُمْكِنُ بحالٍ لـ«المُجْتمعات النَّامية» أنْ تَنْجَحَ في الانْضِمَام إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَة» دون أنْ تَتَوَافَرَ لها مُقَوِّمَاتُ «التَّأْهيل المُنَاسِب»، والتّهْيئَةُ الجَادّةُ لـ«البِنْيَة التّحْتيّة» اللّازِمَة. وفي هذا السِّياق لا بُدَّ من تأمُّل الشُّرُوطِ الرّئيسةِ للانْضِمَام إلى «نادي مُجْتمعات المَعْرِفَة»؛ لأنّ ذلك لن يَتِمّ اعْتِباطاً أو ارْتِجالاً أو بمَحْضِ الصُّدْفَةِ أو بحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ دِعَائيّةٍ؛ فـ«التَّحَوُّلاتُ الكُبْرى» في التّاريخ لا تَتَحَقَّقُ إلاّ إذا ظَهَرَتْ مُواصَفَاتٌ تُؤَهِّلُ لهذه التّحَوُّلات، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبْل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَشَكَّلَ مُنَاخُهَا.

إنّ هذه الحقيقةَ الحَاسِمَةَ تَسْتَدْعِي التَّعَرُّفَ على خصائِص «مُجْتمعات المَعْرِفَة» ومُوَاصَفَاتِهَا، وتَتَطَلَّبُ اسْتِيعاب تلك الشُّرُوطِ في الخُطَطِ والآليّاتِ والبرامِج على مُخْتلف الأصْعِدَةِ، وهذه الشُّرُوطُ، للتّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»[٧٨،٩٦]، أرْبعة:

١) الشَّرْطُ المَعْرفيّ. ٢) الشَّرْطُ اللّغَويّ.

٣) الشَّرْطُ الاجْتماعيّ. ٤) الشَّرْطُ الثَّقافيّ.

ويَهُمُّنَا في هذا السِّيَاقِ الشَّرْطَيْن «الاجْتماعيّ» و«الثَّقافيّ»، وسنُؤَجِّلُ التّطَرُّقَ إلى الشَّرْطَيْن، «المَعْرفيّ» و«اللّغَويّ»، إلى الفَصْلِ الثّامن من هذا الكِتاب.

٦-٦-١) الشَّرْط الاجْتماعيّ:

لقد أَصْبَحَ من البدهيّات المَعْرُوفة أنّ القضايا المُعَاصِرَةَ هي إمّا أنّها نِتَاجٌ مُبَاشِرٌ لمُعْطيات «العلوم والتّقْنية»، أو أنّها إفْرازاتٌ جَانبيّةٌ تَمَخَّضَتْ عن تفاعُلاتِ «الحركة العِلْميّة» وتَسَارُعِهَا المُذْهِل؛ وفي كِلْتا الحالتين، فإنّ المُجْتمعات في حاجةٍ إلى «رُؤيةٍ عِلْميّةٍ» لفَهْمِ هذه التّأْثيرات والتّعامُلِ معها بكفاءَةٍ ونُضْجٍ، وبما أنّ «المَعْرِفَة العِلْميّة» تَعْتَمِدُ - في المقام الأوّل - على «الرّأْسمال البشريّ»، فإنّ قُدْرَتَهَا على تَأْدِيَةِ دَوْرٍ مِحْوريٍّ تَكْمُنُ في توضيحِ صُورتِها، وتَبْسيطِ مُحْتوياتِها، وإبْرازِ مَعَالِمِهَا للمُجْتمع بمُخْتلف فِئَاتِه وشَرَائِحِه.

إنّ «الإشْكَالِيّةَ الكُبْرى» هي أنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةَ مَجْمُوعَاتٍ من أهْل الاخْتصاصات العلْميّـة تَجْتَمِعُ ثـمّ تَنْفَضُّ بعد تَشْخيصِ العِلَـلِ وطَرْحِ الحُلُول؛ فـ«مُجْتمـع المَعْرِفَة» ليس «مُجْتمعـاً نُخْبَويّاً»، ولكنّه قضيّـةُ مُجْتمعٍ بأسْرِهِ يتعاملُ مع المُسْتَجِدَّاتِ - سَلْباً وإيجاباً -، وهـو قضيّةُ أفْرَادٍ ومَجْمُوعـاتٍ يُمَارِسُون حيواتهم اليوميّة فيُؤَثِّـرُون ويَتَأَثَّرُون، ليصوغوا - فـي النّهايـة - مُعـادلاتِ التّفَـوُّقِ أو صِفَـاتِ الإخْفَاق؛ ومن هـذا المُنْطلق تَبْـرُزُ أهميّةُ «الوَعْي العِلْمـيّ الجَمْعيّ» الذي يَصْنَعُ الفُرُوقَ بين «الأُمـم المُتَقَدِّمَة» و«الأُمم المُتَخَلِّفَة».

إنّ «مُجْتمـع المَعْرِفَـة» «مُجْتمـعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ علـى أنْ يتفاعل، بلُغَتِهِ وثقافتِـه وهُويّتِه، مع مُعْطياتِ «العَصْـرِ» ومُسْتَجِدَّاتِ «المَعْرِفَة» بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرائِح ومُخْتلف الفِئات فـي اسْتيعابِ «المَعْرِفَة» وإنْتاجِها وتوظيفِها. إنّ هـذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قَارِعَـةً الجَرَسَ - بقُـوّةٍ وعُنْفوانٍ - أمـام وسائِل الإعْـلام، ورِجَالِ التّعْليـم، وأكاديميّي البحـوث، وأطْيَافِ «المُجْتمع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمات والتّدْريب والإنْتاج، ليتولّى كُلُّ طَـرَفٍ مَسْؤوليّتـه بفاعليّةٍ لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الواعيةِ القَـادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواطِ العمليّـة على طريـق «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ فالعطـاءُ العِلْمِيُّ إنْ بَقِيَ أسير عَقْـلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايتِه، كما أنّ بَقَاءَ العملِ العِلْميِّ حبيس أسْوار معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفناء، أو ارْتهانه لعطاءاتِ الآخَرين وإنْجازاتِهم.

ولا بُـدَّ أنْ نَتَوَقَّـفَ هنا أمـام مُصْطلح «مُجْتمـع المَعْرِفَـة»؛ لنُدْرِكَ أنّنـا نَقِفُ أمام مُصْطَلَحَيْن مُتَكَامِلَيْن، وهما «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ فالأساسُ في هذا التّرْكيب هو «التّفاعُلُ المُجْتمعـيُّ» مع «المَعْرِفَة»، وجَعْلُهـا مُتَاحَةً لكُلِّ فِئات المُجْتمـع؛ فـ(«مُجْتمع المَعْرِفَة» هو مَشْـرُوعُ مُجْتمـع)[٨٣]، ممّا يَعْنِي أنّـه يَطْمَحُ إلى تَكْوينِ «المَجْمُـوع البشريّ» الذي يتفاعلُ - بحيويّـةٍ - مـع «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتـيّ»، ويتعاملُ - بإيجابيّةٍ - مـع المُعْطيات الإنْسانيّة والثقافيّـة والبيئيّة، ويُطَـوِّعُ - بمهارةٍ - حقائِق «الثَّـوْرَةِ العِلْميّة» المُتنامِيـةِ عبْر الكَوْكَبِ الأرْضـيّ وفي آفـاقِ المَجَـرَّاتِ الكَونيّة. وأمّـا أبْرز خصائِص «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، فهي الكفـاءَةُ العَاليـةُ في تَأْمينِ «النَّفـاذ إلى المَعْرِفَـةِ والمَعْلُوماتِ للجميع»، ولـذا فإنّه: (لن تتمكَّنَ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» في القَرْن الواحد والعشرين من بُلُوغِ حِقْبَةٍ جديدةٍ من التّنْمية

الإنْسانيّـة والمُسْتَدامَة إلاّ بشَرْطٍ لا يقومُ فقط على تَأْمين نَفَاذٍ شَامِلٍ للمعارف، بَلْ أيضاً على مُشارَكةِ الجميع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)[٨٣].

٦-٦-٢) الشَّرْط الثّقافيّ:

ولأنّ «الثَّقافة» هـي: «الوَسَطُ الذي يَحْمِلُ مُجْمَلَ النَّشَاطِ البشريّ، ويَضُمُّ المفاهيمَ السَّائِـدَةَ والقِيَمَ المُهَيْمِنَة، ويُبَلْوِرُ الأولويَّـاتِ والاهْتمامات، ويُنَظِّمُ المَدَارِكَ والعَلاقَات»، فإنّهـا تُصْبِـحُ ذات تَأْثيـرٍ حَاسِمٍ فـي عمليّـاتِ «التَّحَوُّل الكُبْـرى»، ومُنْطَلقـاتِ «التَّأْهيل الشَّامِـل»، ويَتَطَلَّـبُ ذلك جُهْـداً كبيراً لإعـادة صَوْغِ «الثَّقافـة» بما يتناغمُ مـع مُتطلَّبات «مُجْتمع المَعْرِفَة» وضَوابِطِـه؛ وهذا يَعْنِي أنّ هناك ثقافةً لازِمَةً لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهي بالضّرورة «ثقافةٌ تَنْمَويّةٌ» عِمادُها «الثَّقافة العِلْميّة»، وأدواتُها «العلوم والتّقْنية»، ورَوافِدُهَا «المعارِف الإنْسانية» بتَشْكيلاتِها وانْتماءاتِها المُخْتلفة.

إنّ تلـك الرُّؤيـة تَقْتَضِي التّعامُلَ الجَـادَّ مع «مَفْهُوم الثَّقافـة التّنْمَويّة»، حيث تُصْبِحُ «التّنْميـةُ» قِيمـةً ثقافيّةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّـةً واجْتماعيّةً؛ لتَتَحَقَّقَ شُـرُوطُ «البيئة الصِّحيّة»، وتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفَعّـالَ»، لتَنْميةِ طاقاتٍ وقُدْرَاتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنَها، وتُطَوِّرُ مهاراتِها، وتَهْتَـمُّ بالإتْقَان، وتُوَظِّـفُ الإمْكَانَاتِ والمَوَارِد. وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» تَقْبَعُ في قَلْـبِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة» وَقُوداً ودَافِعاً ومُحَرِّكاً، وتَبْرُزُ بصِفَتِهَا الـذِّرَاعَ الفَاعِلَةَ لـ«الثَّقافة المُعَاصِـرَة» في أُطُرِهَا المُخْتلفـة وأطْيَافِهَا المُتَعَدِّدَة، ممّا يَعْنِي أنّ نَشْرَ «الثَّقافة العِلْميّة» هـو جُـزْءٌ مِحْوريٌّ من جُهُودِ الانْضِمَـامِ إلى «نادي مُجْتمع المَعْرِفَة» عبْـر تجاوز «التَّعَامُلِ السَّطْحِـيّ» مـع «العلوم والتّقْنيـة»، وتَهْيئةِ تُرْبَةٍ خِصْبَـةٍ لإنْتاج عُلماءٍ ومهـاراتٍ وكفاءاتٍ قَـادِرَةٍ على «التَّعَامُـلِ الإيجابيّ» مع مُتطلَّباتِ «مُجْتمـع المَعْرِفَة» عبْـر «التَّطْوير النَّوْعيّ» لتَفْكيـرِ الفَـرْد، وتَعْميقِ قِيمتِه الذّاتية، وتَنْميةِ «الحِسِّ العِلْمـيّ» لديه، ورَفْعِ درجة إسْهامِه المُجْتمعيّ والثَّقافيّ والتّنْمَويّ.

٦-٧) «الثّقافة العِلْميّة»: أولويّة للمُجْتمعات العربيّة:

إنّ «الثَّـوْرَةَ العِلْميّة - التّقْنيّة» تَفْرِضُ إيقاعاً خاصّـاً على المُجْتمعات البشريّة كافّةً بغَضِّ النَّظَرِ عن خلفيّاتِها الثّقافيّـة، وأُسُسِهَا العقائديّة، ومَوروُثاتِهَا التّقْليديّة، وأعْرَاقِهَا المُتباينـة؛ فالعَالَمُ يَتَحَرَّكُ حثيثاً نحو «حضارةٍ عَالَميّةٍ» يَصْبُغُهَـا «الفِكْرُ العِلْميُّ» بألْوانِه المُمَيِّـزَة، وتُشَكِّلُهَـا المُعْطياتُ التّقنيّـةُ بقفزاتِهـا المُذْهِلَة، ويتسابقُ الجميـعُ في طُمُوحٍ مُشْتَـرَكٍ نحـو تَحْقيقِ مـا أَطْلَقُوا عليـه اسْم «مُجْتمـع المَعْرِفَة». لقد بَـرَزَتْ - في حيويّةٍ وعُنْفُوانٍ - مَعَالِمُ هذه «الحضارة العَالَميّة»، وما تَفْرِضُهُ من ضُغُوطٍ وتداخُلاتٍ وتَعْقيداتٍ وهَيْمَنَـةٍ، وتَجَلَّـى كُلُّ ذلك في الظّاهِـرَةِ المَعْرُوفَةِ باسْـم «العَوْلَمَة» التـي أَصْبَحَتْ -كما هـو مَعْلُـومٌ - قضيّـةً مَطْرُوحةً في جَـدَلٍ مُتزايدٍ، وتَأْويـلاتٍ مُتباينةٍ، وحِـوَارٍ مُكَثَّفٍ على مُخْتلف الأصْعِدَة.

لقـد رأينا - فـي الفَصْلِ الثّاني مـن هذا الكِتاب - مـا أَفْرَزَتْهُ «الحركـة العِلْميّة - التقنيّـة» مـن فَجْـوَةٍ ثقافيّةٍ فـي «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» تَصَدّى لهـا المُفكّـرون والعُلماءُ والمُثقّفـون وصُنّاعُ القرار عبْر جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ لرَفْعِ درجـة «اسْتِحْسَان العلوم والتّقْنية» بين الجماهير، ومَحْـوِ «الأُمِّيّة العِلْميّة»، ونَشْرِ «الوَعْي العِلْميّ» كشَرْطٍ أساسٍ لتَشْكيلِ «مُجْتمع المَعْرِفَـة». وإذا كان السِّيَـاقُ الذي ناقشنـاه هو وَاقِعُ الحِوَارِ والجَـدَلِ والشَّدِّ والجَذْبِ في مُجْتمعـاتٍ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّةُ» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّةُ» عن عُقُولِ رجَالِهَـا وجُهُودِهِـمْ، فكيف يكون الحال في بيئـاتٍ انْتَصَبَتْ أمامها العلـومُ كَائِناً عِمْلاقاً غريباً كَامِلَ النُّمُوّ يَبْطِشُ بكُلِّ أَنْظِمَةِ الحياة ومعاييرِها؟. أليس من الضّروريّ بالنِّسْبَةِ لها أنْ تكـون قضيّةُ «الوَسَطِ الثَّقافيّ» الذي يُمَهِّدُ لـ«الحركـة العِلْميّة»، ويَحْتَضِنُ مُقْتضياتِها، ويُيَسِّـرُ حركتَهـا، ويَدْعَـمُ انْطلاقَها، قضيّةً ذات أولويّـةٍ بَارِزَةٍ وضَـرورةٍ حَاسِمَة؟. أليسَ هـذا مـا يَقْصِدُهُ زكي نجيب محمـود[٢٠] عندما يقول: (إنّك لا تَعْـرِفُ طبيعة العَصْرِ من تَفْصيـلاتِ المعيشـة العمليّة، بقَـدْرِ ما تَعْرِفُهَا مـن الطَّابَعِ الفِكْريّ العـامّ الذي تكون له السِّيـادةُ في توجيه النّاس وهُمْ بصَدَدِ الحُكْمِ علـى الأشْياء والنّاس والمَوَاقِف)؟، وأليسَ

هذا - أيضاً - ما يَرْمِي إليه زكي نجيب محمود[٢٠] عندما يُؤكِّدُ: (ما لمْ تَحْدُثْ في مُنَاخِنَا الفِكْريّ تَحَوُّلاتٌ تُوَائِمُ بينه وبين صُوَرِ الحياة الجديدة، فسيظلُّ التّنَافُرُ قَائِماً بين الرَّأْسِ والقَدَمَيْن)؟. أليسَ هذا - أيضاً - هو «مَنَاطُ الإصْلاح» الذي تُقَرِّرُهُ قِرَاءَةٌ علي أومليل لوَاقِعِ «المُجْتمعات النَّاميَة» عندما يقول: (إنّ المُجْتمع الوَاحِد في العَالَم النّامي يسير بسُرْعَتَيْن: أقليّةٌ تَمْتَلِكُ المَعْرِفَةَ المُتَقَدِّمَة، والقُدْرَةَ على الانْدِمَاجِ في شَبَكَاتِ العَالَم المُعَوْلَم، وأكْثريّةٌ تَغْلُبُ عليها الأُمِّيّة، أو تَتَعَلَّمُ تَعْليماً غير نَافِعٍ في عَالَم اليوم. وهكذا فإنّ تَحْدِيثَ «الثَّقافة العربيّة» هو الكفيلُ بتَمْوينِ الرّأسمال الإنْسانيّ الذي به وَحْده نَسْتطيعُ المُنَافَسَةَ في عَالَمٍ سريع التّطوُّر. وهذا «مَنَاطُ الإصْلاح»)[٢١].

٦-٧-١) في مُواجَهَةِ «المَأْزِقِ التَّنْمَويّ»:

في ضوء ما سَبَقَ، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَعْتَرِفَ أنّ أبْرز أوْجُهِ «إشْكَاليّة التَّنْمية» هو «التَّكْوين الفِكْريّ» لـ«المُثقَّف العربيّ» الذي لم يُصَاحِبْ تَغَيُّرَاتِ عَصْرِهِ ومَعَالِمَ زمانِه، ولم يَتَطَوَّرْ ليتناغم مع خصائص «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» و«ثَوْرَةِ العَوْلَمَة»، بَلْ بَقِيَ يُراوحُ مكانه، ويُطَارِدُ إنْشائيّاتِه، ويُعَانِقُ أشْعَارَه، ويُسَابِقُ فصاحتَه، بينما راحتْ الدُّنيا بِرُمَّتِهَا تَأْخُذُ أشْكالاً مُعَقَّدَةً من التّفاعُلات، وراحتْ الحياةُ بأسْرِهَا تَتَّخِذُ أنْمَاطاً مُتسارِعَةَ التّغَيُّرِ والتَّبَدُّل، وراحتْ المُجْتمعاتُ تخوضُ معارك شَرِسَةً على المَوارِد - البشريّ منْها والطّبيعيّ -، وتَعْكِفُ على تَطْويرِها وتوظيفِها ورَفْعِ إنْتاجيّتِها.

لقد بَقِيَتْ «الثّقافةُ النَّمَطِيّةُ العربيّةُ» أسيرةَ مُصْطلحاتِها وحماسِها وبلاغتِها وخَلْطِهَا، فراحتْ تَجْتَرُّ التّجارب ذاتها، وتُكَرِّرُ الأخْطاء نفْسها، ولا يَخْتَلِفُ في ذلك مُتَعَلِّمٌ عن جَاهِلٍ، ولا يَنْجُو من شِبَاكِهَا مُثقّفٌ يَزْعُمُ وِصَالاً مع «حَدَاثَةٍ» هناك، أو آخَرُ مُلْتَحِفٌ بـ«قَدِيمٍ» يُنَافِحُ عنه في كُلِّ مَحْفَل. وعبْر قِرَاءةٍ مُتَأنيّةٍ لهذه «الثَّقافة النَّمَطيّة» فإنّه لا مناص لنا من الاعْتِرَافِ بأنّنا نُواجِهُ «مَأْزِقاً ثقافيّاً» وَقَعَتْ فيه الأُمّةُ منذ أمدٍ طويلٍ، ودَفَعَتْ ثمناً بَاهِظاً مُقَابِلَ إدْمانِها عليه، وتَخَوُّفِهَا - غير المُبَرَّر - من تَشْخيصِه بنزاهةٍ، وتَحْليلِه بعقْلانيّةٍ، وعِلاجِه بشجاعةٍ. ولذا فإنّ أيَّ وَقْفَةٍ نزيهةٍ أمام هذا الأوضاع المُتَرَدِّية في

تفاعُلاتِ الأُمّة تُحَتِّمُ ضَرورة التّعامُلِ مع العَصْرِ بأدواتِه، فلا يُمْكِنُ خَوْضُ مَعْرَكَةٍ بأسْلِحَةٍ صَـدَأَتْ بفِعْلِ الزَّمن، ولا يجوزُ قَبُـولُ الأعْذَارِ والمُبَرِّرَاتِ ونحن نتعامـلُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تقود إلى «النَّتَائِج» المَنْشُودَة. وعندما يَعْتَرِفُ القَاصِي والدَّانِي بأنّ العَصْرَ هـو «عَصْرُ العلوم والتّقْنيـة»، وأنّ الهَيْمَنَةَ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والثّقافيّة والعَسْكريّة هي لمن يُنْتِجُ أدواتِه ويُطَوِّرُ مُعْطياتِه ويُوَظِّفُ مَوَارِدَه، فإنّ تلك الحقيقة البدهيّة تَفْرِضُ شُرُوطاً وضَوابِطَ لا تَحْدُثُ تِلْقائيّاً، ولا تَتَحَقّقُ بمُجَرَّدِ التّمَنّي، ولكنّها تَتَرَاكَمُ وتَتَبَلْوَرُ تدريجيّاً، ولا يُمْكِنُ اسْتِبَاقُ نَتَائِجِهَا قبل أنْ تَكْتَمِلَ مُقَدِّمَاتُهَا، وتَتَوَافَقَ مُكَوِّنَاتُهَا، ويَتَوَافَرَ مُنَاخُهَا.

لا يُمْكِنُ الرّكونُ إلى القناعة بأنّ «أَزْمَة التّنْمية» سيحلُّها الزَّمن، أو تَهْبِطُ تِلْقائيّاً، أو يجودُ بها علينا الآخَرون؛ وبينما تَنْتَشِرُ مؤسَّسَاتُنَا الفِكْريّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والتّعْليميّة – علـى امْتـداد الأرْض – مُشِيدَةً بدَوْرِ «العلوم والتّقْنية» في انْتِشَالِ الأُمّة من وِهَادِ الرّكُودِ والتَّخَلُّـف، إلاّ أنّها – في الوَقْتِ نفْسـه – تُسَارِعُ الخُطَى – دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ – إلى الانْغِمَاسِ فـي الطُّرُوحَاتِ التّقْليديّة والقضايـا الاسْتِهْلاكيّة والجَدَلِ اللّفْظيّ والتَّـرَفِ الفِكْريّ. أمّا عُنْـوانُ الخُـرُوجِ من ذلك «المَأْزِق» – في رأْيي[٩٧] – فهو لا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ يَتَعَدَّى كَوْنَهُ من «جِنْـس العَصْرِ»، ليَتَجَلَّى في مَفْهُومِ «التَّفْكِيـر العِلْميّ» الذي يُعَابُ على «الثَّقافة النَّمَطِيّة» غِيَابُهُ عنها، بينما تَحْظَى الإنْجـازاتُ المُعَاصِرَةُ بمزاياه وإسْهاماتِه، وذلك هـو «التَّحَدِّي الأَكْبـر» الذي يَسْتَدْعِي «اسْتِجَابَةً» تتناسبُ مـع حَجْمِه، ويتطلَّبُ دِراساتٍ مُسْتفيضةً تَهْتَمُّ بتَجْريـدِ «الإشْكَالِيّة» من الإنْشائيّات والمُزَايدات والجَدَلِيّات لتَدْلِفَ إلى جوهرِها المُتَمَثِّلِ فـي حالة «الفَقْـرِ المَعْرِفيّ» الذي تعيشُهُ الأُمّةُ إزاء تسـارُعِ الأحْداثِ من حولها، وعَجْزِهَا عن فَهْمِ «التَّرْكيبة المُعَاصِرَة» التي تَصْنَعُ زمن اليوم، وتُشَكِّلُ أبْعَادَهُ وتضاريسَه.

٦-٧-٢) «التَّفْكير العِلْميّ» و«الثّقافة»:

انْسجامـاً مع طبيعة «الثَّقافة العربيّة» فـإنّ مُصْطلح «التَّفْكير العِلْميّ» يَحْظَى برَوَاجٍ إنْشائـيٍّ فـي أدبيّاتِنا المُعَاصِـرَةِ إلاّ أنّه يَنْبَغِي أنْ نَعْتَرِفَ أنّ وَسَائِلَـهُ لا تَكْمُنُ في الوسائلِ ذاتهـا التي اسْتخدمناها – عبْر قُرُونٍ – من بلاغيّات وإنْشائيّات واسْتطراداتٍ. ولذا فإنّ

كُلَّ أشْـكَالِ «الطَّرْحِ الإنْشائيّ» التي تَتَسَلَّلُ إلى حِواراتِنا عن «التَّفْكير العِلْميّ» تَخْسِرُ – في رأْيي[٩٧] – رِهاناتِها منذ البداية؛ لأنّها تَسْتَخْدِمُ أدواتٍ لا تُلائِمُ طبيعة ذلك «المَنْهَجِ» ولا تتناغـمُ مع مُكَوِّناتِه؛ فليس من المَنْطقيّ أنْ نَتَوَقَّعَ التَّحَرُّكَ بفَاعِليّةٍ على تضاريس «العلوم والتّقْنيـة» باسْتِخْـدَامِ «خريطة العَالَمِ القديم» التي مهما كانـتْ جَدْوَاهَا في زمانِها فإنّها لـن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ خَصَائِصَ «الخريطة الحديثـة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبَـةً، وتفاصيل دقيقـة. ومن الطَّريف أنّه عندمـا يُطَالِبُ هـذا أو ذاك بضَرورة إدْخَالِ مُقَرَّرٍ دِراسيٍّ خَاصٍّ بـ«التَّفْكير العِلْميّ» في مَنْهَجِنَا التّعْليميّ، وتَكْثيفِ جُرْعَاتِهِ في حِواراتِنا وإعْلامِنـا وقراراتِنا، فإنّ الحديث يَجْرِي وكأنّ هـذه «الطَّريقة العِلْميّة» في «التَّفْكير» هي «جِهَازٌ» يَتِمُّ اسْتيرادُهُ وتَشْغيلُـهُ في الحال، أو «كِتَابُ مَحْفُوظاتٍ» نَخْتَزِنُهُ ونُعِيدُ اسْتِظْهَارَهُ عـن ظَهْـرِ قَلْبٍ، وتغيـبُ عن الأذْهَانِ أنّ «التَّفْكيـر العِلْميّ» – في الحقيقـة – هو مُمَارَسَةٌ فِكْريّـةٌ لهـا أُصُولُهَا وضَوابِطُهَا، وتَجْربـةٌ تراكُميّةٌ تَحْتَاجُ إلى مِحْورٍ تَلْتَـفُّ حوله، وتَتَطَلَّبُ أساساً تَسْتَنِدُ إليه، وتَنْشُدُ تُرْبَةً خِصْبةً تَتَرَعْرَعُ عليها.

من البدهيّـات الضّروريّات في «عَصْرِ المَعْلُومات» – على سبيل المِثال – أنّ «ثقافة الأرْقَـامِ والمَعْلُومات» جُزْءٌ أصيلٌ من خَصَائِصِ «التَّفْكير العِلْميّ» إلاّ أنّ هذه «الثَّقافة» ما زالتْ غريبةً على «العَقْلِ العربيّ»، وما زلنا نَقْرَأُ ونَسْمَعُ نِسَباً مِئويّةً تُلْقَى على عَواهِنِهَا في المَحَافِـلِ ووسائلِ الإعْلام، أو حقائِق عِلْميّة تُشَـوَّهُ وتُبْتَرُ دون رقيبٍ أو حسيب. إنّه لم يَعُدْ مَقْبُـولاً في «عَصْرِ المَعْلُومات» أنْ تُحْشَدَ الأرْقَـام، وتَتَدَافَعَ مَزَاعِمُ الإنْجاز، دون مَرْجِعِيّةٍ مَوثُوقَـةٍ ودِراساتٍ جَـادّةٍ ومَعْلُوماتٍ دقيقةٍ. إنّه من المؤسِـف أنْ نَرْصُدَ – في المُجْتمعات العربيّة – حالاتٍ مُتكرِّرَةً لحركاتٍ بَهْلوانيّةٍ لمَزَاعِم إنْجازاتٍ عِلْميّةٍ لا يَدْعَمُهَا وَاقِعٌ مَلْمُوسٌ أو أرْقَـامٌ مَدْرُوسَةٌ، ومن المُحْزِن أنْ نَشْهَدَ حِـواراتٍ ولِقاءاتٍ ومُنْتدياتٍ يَصْرُخُ أصْحَابُهَا بالنِّسَبِ المِئويّة والأرْقَامِ العَدَدِيّة دون تَحْديدِ مَرْجِعِيّتِهم ومعاييرِهم؛ فكَمْ من زَاعِمٍ – بكُلّ ثِقَـةٍ واعْتـدادٍ – أن «تِسْعين في المائة» من النّاس يَتَّفِقُـون معه، ولا يُبَيِّنُ لنا صاحبُنا هذا كيـف قِيسَتْ هذه النِّسْبَة؟، وما العَيِّنَاتُ التي اسْتُخْدِمَتْ في القِياس؟، وعلى أيّ اعْتباراتٍ تَأَسَّسَـتْ المعاييرُ التي حَدَّدَتْ تلك «التِّسْعين في المائة»؟. بطبيعة الحال، ليس أَدْهَى من

ذلـك إلاّ حالة صاحبنا الذي زعم أنّه لو حَقّقَ «عِشْرين في المائة» من تطلُّعاته في جِهَازِهِ الإداريّ فإنّـه يكـون قد حَقّقَ إنْجازاً كبيـراً، ولم يُفْصِحْ لنا عن مَوْقِـعِ تلك «العِشْرين في المائة» في قَائِمَةِ الأولويّات، ولم يَتَبَرَّعْ بمَعْلُومَةٍ عن مِقْدَارِ المال والوَقْتِ والجُهْدِ المَبْذولِ علـى «العِشْرين في المائة» مُقارَنَةً بـ«الثَّمانين في المائة» التي تَقْبَعُ في «خَانَة النِّسْيان»!. إنّـه من الوَاضِحِ أنّ كُلّ تلك الأسْئلة وغيرها وَارِدَةٌ عنْدما تكون الأرْقَامُ ضمْن المُسْتندات فـي الحِوَارِ والتّوثيق؛ ففي «عَصْرِ المَعْلُومـات» لا تَأْتِي الأرْقَامُ اعْتِبَاطاً، ولا تُولَدُ بالمِزَاج، ولكنّهـا - بطبيعتها الرّقميّـة - ذات خصائِص مُنْضَبِطَةٍ تَعْتَمِدُ على أساليب عِلْميّةٍ ثَابِتَةٍ؛ منهـا القِياسُ المُبَاشِر، ومنها الاسْتِـدْلالُ بالمُقارَنَةِ العِلْميّـةِ المَنْهَجيّة، ومنها الإحْصَاءُ المُسْتَنِدُ إلى أساليـب إحْصائيّةٍ مُعْتَمَدَةٍ. وأمّا مُجَرَّدُ الزَّجِّ بالأرْقَام دون إدْرَاكٍ لطبيعتِها وضَوابِطِهَا فهو مَنْهَجٌ فَاشِلٌ قد يُرَوِّجُ لفُقّاعَةٍ إعْلاميّةٍ سُرْعان ما تَنْفَجِرُ ويَتَكَشَّفُ عَوَارُهَا، وهـو طريقةٌ فـي التّفْكير والعمل لا تَنْسَجِـمُ مع تطلُّعاتِ المُجْتمعات إلـى تَحْقيقِ «التّنْمية الحقيقيّة»، والانْفِتَاحِ على «العلوم الحديثة»، والأَخْذِ بأَسْبَابِ «التَّطَوُّرِ التِّقنيّ».

لقد كان هناك زمنٌ انْتَشَرَتْ فيه - في العَالَمِ الثّالث - صِيَغُ المُبَالَغَة، فهَيْمَنَتْ على وسائـلِ الإعْلام عِباراتُ «أَكْبر مَشْرُوعٍ»، و«أَضْخم مَبْنىً»، و«أَقْوى جيشٍ»، وبالرّغْم من أنّ التّباهـي بالأكْبـر والأضْخم والأقْوى يَفْرِضُ - بالضّرورة - أنْ يكـون هناك «ثانٍ أكْبر»، و «ثـانٍ أضْخم»، وما يلي ذلك من تَرْتيبٍ، إلاّ إنّ إغْفَالَ التّرتيب - في حَدِّ ذاته - دَلالَةٌ على بُعْدِ المَعْلُومات عن الوَاقِع، وعدم اسْتنادها إلى المُقارَنَةِ العِلْمية السّليمة. ولا شكّ في أنّ أُفُولَ ذلك النَّهْجِ في كثيرٍ من وسائلِ إعْلام «العَالَمِ الثّالث» يُعْتَبَرُ دَلالَةً على نُموّ الوَعْي بين أفْرادِه إلاّ أنّ تلك «الرُّوحَ العِلْميّة» ما زالتْ في حاجةٍ إلى جُهْدٍ كبيرٍ لتَرْسيخِهَا وإنْضَاجِهَا فـي الكِيـان الإداريّ والتّخْطيطي والتّنْفيذيّ والاجْتماعيّ لـ«الـدُّول النّامية». وأمّا التّحَقُّقُ من صِحَّةِ المَعْلُومـات وتَحَرِّي الدِّقَّة في الأرْقَامِ ومصادرِها، فموضوعاتٌ ما زالتْ حَائِرَةً بين الإعْلاميّين وحَمَلَةِ الأقْلام في العَالَمِ الثّالث، وهي قضيّةٌ لا تَعْنِيهِمْ من قريبٍ أو بعيدٍ، فنجـدُ أنّ أحدهم مـا أنْ تَبْلُغَ مَسَامِعَهُ قضيّةٌ ما حتى يُسَارِعَ إلـى طَرْحِهَا في الصُّحف أو وسائـلِ «الإعْـلام الجديد»، وذلك قبل التّأَكُّدِ مـن صِحَّةِ مَعْلُومَاتِه، وفـي رأْيه أنّ التّأكيد

والنّفسي وجَمْعَ المَعْلُومات مهامٌّ تَقَعُ على عَاتِقِ الجِهَةِ المَعْنِيَّة، وأنّ مُهمّته تَبْدَأُ وتَنْتَهي بالْتِقَاطِ المَعْلُومة عَشْوائيّاً وطَرْحِهَا أمام النّاس دون تَمْحيصٍ مَبْدَئيٍّ أو تَمْييزٍ عَقْلانيٍّ؛ وهذا - في الوَاقِعِ - أسْلوبٌ غير عِلْميٍّ، وهو أقْرب إلى أسْلُوبِ الارْتِجَالِ وافْتِعَالِ الإثارة منه إلى أسْلُوبِ العمل الهَادِف الذي يَجْمَعُ في إطارِه دِقَّةَ المَعْلُومات، وموضوعيّة الطَّرْح، وحياديّة المُنَاقَشَة.

لا مَفَرّ من إدْراك حقيقة أنّ للأرْقَام والمعْلُومات مصادِر ثَابِتَةً، ودَلالاتٍ دقيقةً، ومعاييرَ مُنْضَبِطَةً، وتُبْنَى عليها قراراتٌ مُهِمّةٌ، ولذا كان من المُهِمّ تَكْريسُ «التَّفْكير العِلْميّ» في كُلّ المُؤسَّسَاتِ - العَامّ منها والخَاصّ - في مُحاولاتٍ جَادّةٍ لفَحْصِ الظّواهِر، وجَمْعِ المَعْلُومات، واسْتِخْدَام «لُغَةِ الأرْقَام»، واسْتِكْشَافِ العَلاقَاتِ الخَفِيّةِ بين الأمور، ورَبْطِ الأسْبَابِ بمُسَبِّبَاتِهَا بوسائِل عِلْميّةٍ، وأدوات إحْصائيّةٍ، وبُحُوث ميدانيّة. يَنْبَغِي أنْ نُدْرِكَ أنّ «التَّفْكير العِلْميّ» ليس وحياً يَنْزِلُ من السّمَاء، وليس لحظاتِ سِياحَةٍ في رُبُوع «وادي عَبْقَر»، ولكنّه شَأنٌ يَتَطَلَّبُ مَعْرفةً ومَعْلُوماتٍ ومُرْتكزاتٍ وتفاعُلاتٍ سَبَقِيَّةً مُتَأصِّلَةً. وأمّا «التّفْكيرُ» دون هذه «البِنْيَةِ التَّحْتيّة» فهو تَجَوُّلٌ في فَرَاغٍ، وهو كَلٌّ على صاحبه، فكما قُلْنَا - في الفَصْلِ الخامِس - إنّ «العَقْلَ» في حاجةٍ إلى مُحَدِّدَاتٍ، لأنّه يتعاملُ مع أدواتٍ هي المفاهيم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومات، وبقَدْرِ تَوَافُرِ هذه المعاني والدَّلالاتِ والقِيَم من مُعْطياتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» يَسْتطيعُ «العَقْلُ» أنْ يُؤمِّنَ درجةً أعْلى من «الإنْجاز المَعْرفيّ»، وقُدْرَةً أكْبر على النَّفَاذِ إلى رِحَابِ «التَّفْكير العِلْميّ».

وهكذا نجدُ أنّ تَأْسيسَ «التَّفْكير العِلْميّ» في المُجْتمع يَتَحَوَّلُ - بالضّرورة - إلى «قضيَّة ثقافةٍ» بكُلِّ أبْعَادِهَا ومُجْمَلِ تفاعُلاتِها، ونجدُ - من وَاقِعِ طبيعة العَصْرِ ومُقْتضياتِه، واسْتِناداً إلى المُصْطلح ذاته - أنّ «التَّفْكير العِلْميّ» يَغْرِسُ جُذُورَهُ في مبادئ «العلوم الحديثة» وطُرُقِ تَحْليلِهَا ووسائلِ تَطْبيقِهَا ومَنْهَجِ اسْتِدْلالاتِهَا، ويَسْتَمِدُّ أدواتِه وعناصرِه من عمليّاتِ «التَّفَاعُلِ الفِكْريّ» التي يَرْسُمُ أُطُرَهَا «فِكْرٌ عِلْميٌّ»، وتُثْري ساحاتِها «قفزاتٌ تِقنيّةٌ»؛ وبهذا يكونُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ» نِتَاجاً طبيعيّاً لتَأْصيلِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ومُحَصِّلَةً تِلْقائيّةً تَرَاكُميّةً مُلازِمَةً لحَرَاكِ «الثَّقافة العِلْميّة» وانْتِشَارِهَا. ولذا كان لِزاماً على أيِّ

رُؤىً تَطْمَحُ إلى تَأْصيلِ «التَّفْكير العِلْميّ» في البيئة، وإرْسَاءِ أُسُسِهِ في العُقُول، أنْ تَحْرِصَ وتُرَاهِنَ على جَعْلِ «الثَّقافة العِلْميّة» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة، وجُزْءاً عُضْويّاً من «الثَّقافة السَّائِدَة»، بحيث يَسُودُ مُنَاخٌ يتجاوبُ مع «رُوحِ العَصْر»، ويَتَفَهَّمُ ضُغُوطَهُ وشُرُوطَه، ويُرَسِّخُ الحماس والاهْتمام بالكُشُوفات العِلْميّة والمُنْجزات التّقنيّة. وأمّا الحقيقةُ الثّابِتَةُ، فإنّه عندما تَزْدَهِرُ «ثقافةُ العِلْم» بين النّاس، ويَتَبَلْوَرُ «التَّفْكيرُ العِلْميُّ»، وتَتَغَلْغَلُ جُذُورُهُ في «النَّسيج المُجْتمعيّ»، فإنّ النّاتِجَ التّلْقائيّ هو اضْمِحْلالُ قراراتِ «الجَهْلِ» المَبْنِيّةِ على المِزَاجِ اللّحظيّ، والارْتِجَالِ التَّعَسُّفيّ، والتَّوهُّمَاتِ الانْفعاليّة، والتَّصَوُّراتِ النَّرْجَسِيّة، والخُطَبِ البلاغيّة.

وهكذا يَتَّضِحُ أنّ من أبْرز الأدْوار التي يُمْكِنُ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» أنْ تقوم بها هو أنْ تَرْتَقِي بـ«الثَّقافة العربيّة» من قَوْقَعَةِ المَنْظُومَاتِ اللّفظيّة والتّأمُّلاتِ الوَصْفيّة والجِدَالِ الكلاميّ إلى فُسْحَةِ الأرْقَامِ والإحْصاءاتِ والمَعْلُوماتِ والتّجْريبِ والانْضِبَاطِ الموضوعيّ، وهذا أمْرٌ مَلْحُوظٌ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - في وَاقِعِ الحياة المُعَاصِرَة حيث نجدُ أنّ أولئك الذين خاضوا تَجْرِبَةَ التّأسيس العِلْميّ والتّدْريب التّجْريبيّ يكونون - إلى حَدٍّ ما - أكْثر انْضِبَاطاً ومُرَاعَاةً لعناصرِ «الموضوعيّة»، وحِرْصاً على عدم التّعْميم، واهْتِمَاماً بالاسْتِدْلالِ والتّحْليلِ والتّدْقيق؛ إلاّ أنّه من المُحْزِنِ أنْ نَلْحَظَ - في المُجْتمعات العربيّة - أنّ «التَّفْكير العِلْميّ» - بمَنْهَجيّتِهِ الحقيقيّة وضَوابِطِهِ الصّارِمَةِ - ما زال غَائِباً - بدرجاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ - بين أصْحاب «التَّخصُّصات العِلْميّة - التَّجْريبيّة» أنْفسهم، ولا عجب في ذلك، فالغَلَبَةُ في النّهاية هي لـ«الثَّقافة النَّمَطِيّة» السَّائِدَة، وأفْلاكِهَا الانْفعاليّة، ورَوَاسِبِهَا التّرْبويّة والنّفْسيّة والاجْتماعيّة.

٦-٧-٣) عَقْلَنَة الثّقافة:

انْطلاقاً ممّا سَبَقَ، نَسْتطيعُ أنْ نَخْلُصَ إلى أنّ المُوَاصَفَاتِ والشُّرُوطَ المَطْلُوبَةَ للخُرُوجِ من «المَأْزِقِ الثَّقافيّ» أكْثر تَعْقيداً ممّا نَعْتَقِدُ، ولعلّ أهمّ أشْكال ذلك التّعْقيد هو قضيّةُ «عَقْلَنَةِ الثّقافة» التي تُمَثِّلُ مَسْألةً جوهريّةً لإحْدَاثِ تَحَوُّلاتٍ في «المُنَاخِ الفِكْريّ»

تُوَائِـمُ بين «الثَّقافة العربيّة» وبين صُـوَرِ الحياة المُعَاصِرَة، وتُرَسِّـخُ «الفِكْرَ التّنْمَويّ» في التّفاعُـلاتِ والمُمَارَسَاتِ، وبدون ذلك ستستمرُّ «الثَّقافـةُ» عِبْئاً على أصْحابها بإفْرازاتها الضّحْلَةِ وسَلْبيّاتها المُتَعَاقِبَةِ وجَدَلِهَا العقيم. من المُهِمّ - إذاً - في سِياق تَقَصِّي الحُلُولِ لـ«إشْكَاليّـةِ التّنْميـة» أنْ نَطْـرَحَ السُّؤال الـذي يَفْرِضُ نفْسه مِـرَاراً وتَكْرَاراً ولـو بأشْكَالٍ مُخْتلفـةٍ، وباسْتِعَـارَةِ توصيف محمد عابد الجابري[٦٧] لـ«الثَّقافـة العربيّة» بأنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» لا «خِطَابُ عَقْلٍ»، فإنّنا نَطْرَحُ السُّؤال على النّحو التالي: (كيف نَسْتطيعُ أنْ نُحَوِّلَ «الخِطَـابَ النَّهْضَويّ - التّنْمَويّ» في «الثَّقافة العربيّة» مـن «خِطَاب وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْل»؟). ولا شكَّ لديّ في أنّ مُثقّفينا ومُفكّرينا سيَخْرُجُون علينا بعشرات الإجابات التي تُحَلِّقُ في فضـاءاتٍ لَفْظيّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وتَسْتَعِينُ بمُصْطلحاتٍ «حَدَاثيّةٍ» مُؤَثِّرَةٍ، وتَسْبُرُ أغْوارَ مُنْطَلقاتٍ «تُرَاثيّةٍ» شَائِقَةٍ، ولكن المُرَاجَعَةَ والتّقْييمَ لـ«الحركة النّهْضَويّة» في «المُجْتمعات العربيّة» - منذ انْطلاقتها قبل حوالي مائتي عامٍ - يُوضِّحان أنّ كُلَّ تلك الإجابات - دون اسْتِثْنَـاءٍ - لا تَعِدُنَـا بإنْجازٍ وَاضِح المعالِم على طريق ذلـك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» في التّفْكيرِ والمُمَارَسَـةِ والإنْتـاج، كمـا أنّها لـم تُفْلِحْ في تَحْريـرِ «العَقْلِ العربيّ» من حالـة ما يُعْرَفُ بـ«التَّفْكير الحَدِّيّ» الذي لا يرى في الأشْياء إلاّ «الكَمَالَ المُطْلَقَ» أو «النّقْصَ الفَادِح»، ولم تَتَمَكَّنْ من إدْخَالِ «العَقْلِ العربيّ» في مَنْظُومَةِ «العَقْلِ المُنْضَبِطِ» الذي يَزِنُ الأُمُورَ بمعايير موضوعيّةٍ، ويُرَوِّضُ الانْفعالاتِ بضَوابِط رشيدة.

تلـك الحقيقة يُؤَكِّدُهَا محمد جابر الأنصاري، وهو يُبَيِّنُ أنّ من خصائِص «التَّفْكير العربـيّ السَّائِد» هو: (انْجرافه للعُمُوميّـاتِ والأفْكَارِ المُجَرَّدَةِ الغَائِمَـةِ وغير المَحْسُوسَةِ على حِسَابِ الوَقَائِع والحقائِق والجُزْئيّات التي تَتَطَلَّبُ جُهْداً في البَحْثِ والتّفْكير، وصَبْراً عليهمـا، وجُرْأةً فـي مُوَاجَهَةِ تضاريـس الوَاقِعِ الصُّلْبِ أيّـاً كانتْ صُعُوبَتُـهُ وقَسْوَتُه)[٧٠]، وأمّـا محمد عابد الجابريّ فيَسْبُرُ غَوْرَ «الخِطَابِ الفَلْسَفيّ العربيّ المُعَاصِرِ» فيَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلـك فيقول: (التّنَاقُضُ بين «الطَّابَعِ العَقْلانيّ للأهْداف» و«الطَّابَعِ اللاعَقْلانيّ للتَّفْكيـر» هو السِّمَةُ البَارِزةُ فـي «الخِطَابِ الفَلْسَفِـيّ العربيّ المُعَاصِـر»)[٧١]. أمّا عمليّةُ «عَقْلَنَـةِ الثَّقافـة» فهي - وفْق ما يَطْرَحُـهُ ماكس فيبـر (Max Weber) - عمليّةٌ تَهْدِفُ

إلى (تَحْويل القِيَم والتّصوُّرات الجديدة إلى قَواعِد ومُرْتكزات يَتَأَسّسُ عليها «البِنَاءُ الاجْتماعيّ»)[١٦]؛ وهذا يَعْنِي - بالضّرورة - اكْتِسَابُ المَقْدرة على التّحْليلِ المُنْضَبِطِ والتّفْكيرِ الموضوعيّ والرُّؤى المُعَاصِرَةِ لتَأْطيرِ تلك المُعْطياتِ التُّرَاثيّة والحَدَاثيّة في مَنْظُومَةٍ تتعاملُ مع عَصْرِهَا بحيويّةٍ، وتَسْتفيدُ من مُنْتَجَاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ باقْتدارٍ؛ فـ(«العَقْلَنَةُ» عند فيبر تَعْنِي إعادة تَنْظيم «المجال الثَّقافيّ» ضمْن دَوائِر مَعْرفيّةٍ مُسْتقلّةٍ وخَاضِعَةٍ لمَجْمُوعَةٍ من القِيَم والمفاهيم المُحَدَّدَة)[١٦].

وهكذا تَكْمُنُ «البِيئةُ المحليّةُ» - بكُلِّ أبْعَادِهَا الثَّقافيّة والماديّة والاجْتماعيّة - في قَلْبِ «المُشْكلة التّنْمَويّة المُعَاصِرَة»، وعندما نَتَحَدَّثُ عن «حركة العلوم والتّقْنية»، فإنّنا نَحْتَاجُ إلى لُغَةٍ مُنَاسِبَةٍ قَادِرَةٍ على توطينِ هذه الحركة وتَخْصيبِ التُّرْبَةِ لاسْتِقْبَالِهَا، فكما يقولُ طه حسين: («العِلْمُ» لا وطن له، ولكنّه إذا اسْتَقَرَّ في وطنٍ من الأوطان تَأَثَّرَ بإقْليمه وبيئتِه ليَسْتطيع أنْ يَتَّصِلَ بنُفُوسِ سَاكِنيه)[١٧]. أمّا محمد عابد الجابريّ[١]، فإنّه يجدُ أنّ «الوَضْعَ الثَّقافيَّ الرَّاهِنَ» يُنْتِجُ (فِكْراً مُشَوَّشاً غريباً عن مُجْتمعه وعَصْره)؛ وذلك لأنّ ما تُرَوِّجُ له الوسائِلُ الإعْلاميّة والثّقافيّة يَنْحَصِرُ في بِضَاعَتَيْن ثقافيَّتَيْن مُنْفَصِلَتَيْن مُتَنَافِرَتَيْن؛ الأولى تَنْتَمِي إلى (التُّرَاث تَعْرِضُهُ وتُكَرِّرُه)، والأُخْرى (بِضَاعةٌ ثقافيّةٌ غَرْبيّةٌ حديثةٌ)، ويرى الجابريّ أنّه: (في كِلْتَا الحَالَتَيْن يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بأجْزَاءٍ وقِطَعٍ مُنْتَزَعَةٍ من سِياقِهَا مَفْصُولَةٍ عن الرُّوحِ العامّةِ التي أَنْتَجَتْهَا). ومن الوَاضِحِ أنّ تلك الرُّؤيةَ هي إعادةُ صِياغَة، أو إفْرَازٌ من إفْرَازَاتِ «إشْكَاليَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، ولقد اهْتَمَمْنَا بهذه «الإشْكَاليَّة» في الفَصْلِ الرّابع، حيث أوضحنا الدَّوْرَ الحَاسِمَ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في التّعامُلِ - بإيجابيّةٍ - مع هذه «الإشْكَاليَّة»، وتفكيكِ تناقُضاتها، وقُدْرَتِهَا على تجاوز «حالة الاسْتِقْطَاب» بين «التُّرَاثيّ» و«الحَدَاثيّ» عبْر «تَوَافُقٍ تَنْمَويٍّ» يَتَبَنَّى «الفِكْرَ العِلْميّ» ليُحَقِّقَ الأُلْفَةَ والانْسِجَامَ والتّلاقُحَ بين مُكَوِّنَاتِ المُجْتمع ومُقَوِّمَاتِه، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ «ثقافة العَصْرِ» ومُجْتمعاتِه وأنْمَاطِ حياتِه واقْتصادِه وازْدهارِه تَعْتَمِدُ - في المقام الأوّل - على «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، ومُعْطَيَاتِهَا الكَاسِحَة، وثقافتِها التي لا تَسْتَعْدِي أحداً.

ولا شكّ في أنّ «التَّرْكيبة الثَّقافيّة - العِلْميّة» التي تُؤصِّلُ لـ«التَّفْكير العِلْميّ»، وتُرَسِّخُ الـرُّؤى العَقْلانيّة، وتُوَطِّدُ دَعَائِمَ المَنْطِـقِ والتّجْربةِ والموضوعيّة عنـد التّحْليلِ والتّقْييمِ والدّراسة؛ كُلُّ ذلك من أهمّ ذخائِر التّفْكير اللّازِم اسْتدعاؤها إذا أردنا الاسْتجابة لدَعْوَةِ محمـد عابد الجابريّ وهـو يُوَضِّحُ طبيعة المهامّ التي يَنْبَغِي لـ«الفِكْرِ العربيّ» أنْ يقوم بها بـ«رُوحٍ عَقْلانيّةٍ نَقْديّةٍ» وإلاّ: (فإنّ التّطوُّرَ إلى الأمام لـن يَشُقّ طريقه الصّحيحة عنْدنا. هـذه المهـامّ تَتَلَخَّصُ في عِبَارةٍ وَاحِـدَةٍ هي نَقْدُ الوَاقِـعِ العربيّ من جميـع جوانبه: نَقْدُ المُجْتمع، ونَقْدُ الاقْتصاد، ونَقْدُ العَقْل)[١]. وعموماً فإنّ المُتَأَمِّلَ لأبْعَادِ «إشْكَاليَّة التّنْمية» كمُعْضِلَةٍ مُتَفَاقِمَةٍ يُدْرِكُ أنّ غِيَابَ «الثَّقافة» - القَادِرَةِ على فَهْم «رُوح العَصْر» والاسْتِجَابَةِ لتحدّياتـه - مَسْؤولٌ عـن تَفَاقُم هذه «الإشْكَاليّة» واسْتِمْرَارِهَا فـي «المُجْتمعات النّامية»؛ فقضيّـةُ نَشْـرِ «الثَّقافة العِلْميّة» وتَأْصيلِها في هذه المُجْتمعـات ما زالتْ - إلى حَدٍّ كبيرٍ - خَاضِعَـةً لجُهُودٍ فَرْديّةٍ مُبعْثَـرَةٍ واجْتهاداتٍ مَحْدُودَةٍ قَاصِرَة، فهـي - كما قُلْنَا[٢٣] وكَرَّرنَا في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ - «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في «المُجْتمعات العربيّة». وأمّا عنْدما يقولُ أسامة عبد الرحمن: (إنّ الحريّة الأكاديميّة والمُنَاخَ المُلائِمَ للبَحْثِ والإبْدَاعِ لا يَصْدُرَان بقانـونٍ أو بنِظَامٍ ولكنّهما مُحَصِّلَةُ قِيَمٍ اجْتماعيّةٍ وسياسيّةٍ وثقافيّةٍ رَاسِخَةِ الجُذُور)[١٢]، وعنْدما نَتَحَدَّثُ عن افْتِقَارِ العَالَمِ العربيّ إلى النّشاطِ البَحْثيّ المُمَيَّزِ والابْتِكاراتِ التّقنيّةِ المُجْدِيَـةِ والإسْهَـامِ العِلْميِّ المُنْتِج، فإنّنـا - دون شَكّ - نَتَحَدَّثُ هنا عـن أهميّة تَرْسيخ ثقافـةٍ قَـادِرَةٍ على تَحْفيزِ المَواهِـبِ والقُـدْرَاتِ واسْتِقْطَابِهَا واحْتِضَانِهَـا، وتَهْيئةِ «البيئة المُنَاسِبـة» لاسْتِيعابِ عطاءاتِها، وبدهـيٌّ أنّ مثْل تلك «الثقافة» لن تَسْتطيع أنْ تَقِفَ وتَنْمُوَ دون الاعْتِمَادِ على عمودِها الفِقْريّ المُتَمَثِّلِ في «الثَّقافة العِلْميّة».

٦-٧-٤) في انْتظار «تَحوُّلٍ ثقافيٍّ»:

إنّ النّقْـلاتِ العميقـة، التـي حَدَثَـتْ على مُسْتـوى الكُـرَة الأرْضيّة عبْـر تفاعُلاتِ «الحركـة العِلْميّـة - التّقنيّة»، لـم يُصَاحِبْهَا - للأسف الشّديد - «تَحَـوُّلٌ ثقافيٌّ» مَلْمُوسٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا بَقِيَـتْ ثقافتُها بريئةً مـن كُلِّ ما يَضْطَـرِمُ على السّاحةِ

العِلْميّة والمَعْرفيّة والإنْتاجيّة، وأمّا أكْبر تَأَثُّراتِهَا فقد كانتْ – كما هو مُتَوقَّعٌ ومُنْسَجِمٌ مع طبيعة «الثَّقافة العربيّة» – على الصّعيدِ الكلاميّ والتّأمُّليّ والخَطَابيّ عبْر تَصَادُمِ تيَارات «الحَدَاثيّيـن» بمعَاقِـل «التَّقْليديّين»، أو بَرَزَتْ علـى السّاحة في شَـكْلِ صِرَاعاتٍ سياسيّةٍ ونِزَاعَـاتٍ حول السُّلْطَة؛ ولكنّها في كُلِّ أشْكَالِهَا المُخْتلفة من عِرَاكٍ وحَرَاكٍ لم تُسْهِمْ في تَقْليصِ الفَجْوَةِ مع «ثقافة الغَالِب»، أو إضْعَافِ الاعْتِمَادِ على مُعْطياتِه ومُنْتَجَاتِه، أو الدَّفْعِ نحو تَفْكيكِ «إشْكَاليَّة التّنْمية» والتّصَدِّي لمُسَبِّبَاتِهَا.

لقد رأينا – في سِيَاقِ هذا الكِتاب – كيف أَصْبَحَ الاسْتِقْطَابُ القَائِمُ بين «ثقافة النُّخْبَة» و«ثقافـة الجُمْهُور» يتداعى تحْت وَطْأَةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» و«ثَوْرَةِ الاتِّصالات»؛ فالتّفاعُلاتُ والتّبَادُلاتُ بين «الثَّقافَتَيْن» أَصْبَحَتْ أمْراً حَتْميّاً، ولكي تَسْتطيع هذه التّفاعُلاتُ أنْ تَنْسَجِمَ مـع «رُوحِ العَصْر» وتَسْتَجيبَ بفَاعِليّةٍ لأنْواعِ التّحدّيات، فإنّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» دَوْراً رئيساً فـي تلك المُهِمّـةِ التي تُؤسِّسُ لـ«التَّجَانُسِ الفِكْـريّ» و«التّوَافُقِ الاجْتماعـيّ» و«الانْطِلاقَةِ التَّنْمَويّـة»؛ وذلك – بكُلِّ بساطةٍ – هو أحد نَوَاتِج «الحركة العِلْميّة – التقنيّة» وخَصَائِصِهَا وتفاعُلاتِهـا اللّصيقة بـ«التَّدَافُعِ الثَّقافيّ – العِلْميّ»، وهـو الأَمْرُ الذي يُوضِّحُهُ أحمد زويل بقوله: (وفـي الدُّوَلِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْمِ» وإبْهَـارُ «التكنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة»)[٧٠].

وهكذا نجدُ أنّ «الثَّقافـة العِلْميّة» ليستْ فقط قَادِرَةً على رَبْطِ المُجْتمع بالقُوى التي تَحْكُـمُ عَصْرَه، وليستْ فقـط دَاعِمَةً لقُدْرَاتِ الاكْتِشَافِ والابْتِـكَارِ والإبْدَاعِ، وليستْ فقط مُهَيِّئَـةً لأجْوَاءِ «البيئة المُنَاسِبَة» التي تَدْفَعُ نحو الإنْجازِ العِلْميّ والإنْتاجيّةِ العمليّة، ولكنّها – أيضـاً – تُنَمِّـي الفُضُولَ المَعْرفيّ وحُـبَّ الاسْتِطْلاعِ والبَحْثَ والرَّغْبَةَ فـي قِرَاءَةِ «كِتَابِ الطَّبيعـة» المَفْتُوحِ المُذْهِل فـي أسْرَارِهِ والفَائِقِ في إنْجازاتِه؛ وهـي تَغْرِسُ بُذُورَ «التَّفْكير العِلْمـيّ»، وتُطَوِّرُ مهاراتِ التّحْليلِ والتّعْليلِ والعَقْلانيّة، وتُبَلْـورُ قِيَمَ الانْضِبَاطِ وأخْلاقيّاتِ العمـل. وأمّا تَرْقِيَةُ الحِسِّ الجماليّ، وتَعْزيزُ ومضاتِ الاسْتِشْعَارِ الوِجْدَانيّ، وتَعْميقُ الرُّؤى الإنْسانيّة، فإنّ «الثَّقافة العِلميّة» قريبةٌ منها ومُتَفَاعِلَةٌ معها عبْر سِيَرِ رِجَالاتِهَا، وأطْيافِهَا الإنْسانيّـة، ومجالاتِها الرَّحْبَـةِ والمُتَّسِعَةِ باسْتمرارٍ، وخيالِها الأخَّاذِ الـذي تُبْرِزُهُ أدبيّاتُ

«الخيال العِلْميّ»، وتَحْفِلُ به مُعْطياتُ «العِلْمِ» التي تَفَوَّقَتْ بمراحِل على كُلِّ ضُرُوبِ الخيال.

من المُهِمِّ – إذاً – أنْ نَعِيَ ضَرورة إجْرَاءِ «تَحَوُّلٍ ثقافيٍّ» جِذْريٍّ بحيث تَحْتَلُّ «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» مَوْقِعـاً ذا أولويّةٍ بَـارِزَةٍ في مَنْظُومَةِ الاهْتمامـاتِ الثّقافيّة والتّوعويّـة والفِكْريّة فـي حياة «المُجْتمعـات العربيّة»، ومن الضّـروريّ – في سِيَاقِ طَـرْحِ الخَلْفيّاتِ والقضايا والمفاهيـمِ العامّـةِ المُرْتَبِطَةِ بمُصْطلح «الثَّقافة العِلْميّـة» – أنْ نَحْرِصَ على تَعْريفِ هذا المُصْطلح، وضَبْطِ تَصْنِيفَاتِهِ ومُوَاصَفَاتِهِ ومَضَامِينِهِ وأهْدَافِهِ ومُعَوِّقَاتِه، وذلك في إطَارِهِ العـامِّ المُتَعَلِّـقِ بـ«المُجْتمعات الإنْسانيّـة»، وفي إطَـارِهِ الخاصِّ المُرْتَبِـطِ بـ«المُجْتمعات العربيّـة» وما يُمَيِّزُهَا من ثقافةٍ وعقيـدةٍ ومفاهيمَ وتحدّياتٍ، وهذا ما نَسْعَى إلى مُعَالَجَتِهِ في الفَصْلِ التّالي.